جين أستن

الكبرياء والهوى

رواية

ترجمة

محمد بدران

الكتاب: الكبرياء والهوى .. (رواية)

الكاتب: جين أستن

ترجمة : محمد بدران

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

أستن ، جين

الكبرياء والهوى .. (رواية) / جين أستن ، ترجمة: محمد بدران

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٩ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٠٥ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان　　　رقم الإيداع : ٢١٤٠٠ / ٢٠١٩

الكبرياء والهوى

رواية





أشخاص الرواية

مستر بِنِت: سيد من سراة الريف.

مسز بنت: زوجته.

الآنسات: جين، إلزبث (لإليزا أو لزي)، ميري، كترين (كتي) وليديا بنت بنات المستر وزوجته.

مستر كلنز: قس الأبرشية وأحد أقرباء المستر بنت البعيدين.

مسز فلبس: أخت مسز بنت وزوجة أحد المحامين.

مستر جاردنر: أخ مسز بنت وأحد رجال الأعمال في لندن.

مسز جاردنر: زوجته.

سير وليم لوكاس: تاجر موسر نال لقب «فارس» واعتزل العمل.

السيدة لوكاس: زوجته وصديقة لمسز بنت.

السيدة لوكاس: زوجته وصديقة لمسز بنت.

الآنسة كارولين لوكاس: كبرى بنات سير وليم وزوجته وصديقة حميمة لإلزبث بنت.

الآنسة مارية لوكاس: ابنتهما الثانية.

مستر بنجلي: سيد موسر.

مسز هرست: (لويزة) كبرى أختيه وصديقة جين بنت.

الآنسة كارولين بنجلي: صغرى أختيه تدير له البيت وهي صديقة جين بنت.

مستر دارسى: سيد من أسرة نبيلة وصديق مستر بنجلي.

الآنسة جورجيانا دارسى: ابنته الصغرى.

السيدة كترين ده بورج: خالة مستر دارسى ونصيلاة مستر كلنز.

الآنسة آن ده بورج: ابنة السيدة كترين وابنة خالة مستر دارسي.

الكولونل فتز وليم: ابن اخت السيدة كترين وقريب مستر دارسى.

الكولونيل فورستر: ضابط يقود الفرقة المعسكرة في مرتين.

مسز فورستر (هريت): زوجته الشابة وصديقة حميمة لليديا بنت.

المستر دنى: ضابط في الفرقة السالفة الذكر.

مستر وكهام: ضابط آخر كان والد مستر دارسى إشبينه وكان هو ابن وكيل مزارعه.

الفصل الأول

تحدثت مسز بنت إلى زوجها في يوم من الأيام قائلة: «عزيزي مستر بنت، هل سمعت أن بستان نذرفيلد قد عرض أخيراً للإيجار؟».

وأجابها مستر بنت بأنه لم يسمع هذا الخبر.

فردت عليه بقولها: «لكنه معروض للإيجار حقا، فقد كانت مسز لنج هنا توا وقد أفضت إليّ بالقصة من أولها إلى آخرها».

ولم يحر مستر بنت جوابا.

وصاحت به زوجته، وقد نفذ صبرها: «ألا تريد أن تعرف من الذي أخذه؟».

«إنك تريدين أن تخبريني بذلك، ولست أمانع في أن أسمعه منك».

وكانت هذه العبارة دعوة لها كافية.

«أجل يا عزيزي، تقول مسز لنج إن نذر فيلد قد أخذه شاب واسع الثراء من شمال إنجلترا؛ وإنه جاء يم الأثنين ليشاهد المكان، فلما رآه أعجب به إعجابا وافق معه على أن يستولى عليه من فوره، وسيجيء بعض خدمه ليسكنوا البيت قبل أن ينتهي هذا الأسبوع».

«وما اسمه؟».

«بنجلي».

«وهل هو متزوج أو أعزب؟».

«آه، إنه أعزب يا عزيزي ما في ذلك شك! إنه رجل أعزب موسر؛ يبلغ دخله أربعة آلاف جنيه أو خمسة آلاف في السنة، ألا ما أحسن حظ بناتنا؟».

«وكيف يكون هذا؟ وما علاقة هذا بهن؟».

وأجابته زوجته: «عزيزي مستر بنت! كيف ترضى أن تكون متعبا إلى هذا الحد؟ إن عليك أن تعرف أني أفكر في أن يتزوج بواحدة منهن».

«وهل هذا قصده من إقامته هنا؟».

«قصده؟ هذا قول هراء، ولست أدري كيف تلفظ بهذا القول! ولكن لا يبعد أن يشغف بحب واحدة منهن، ولذلك يجب عليك أن تزوره بمجرد مجيئه».

«لست أرى ما يدعو إلى هذا؛ إني آذن لك أن تذهبي لزيارته أنت والبنات، أو أن ترسلي له وحدهن، وهذا خير من ذهابك معهن، لأنك لا

تقلين جمالا عن أية واحدة منهن، وقد يحبك مستر بنجلي أكثر من حبه لسائر الجماعة».

«إنك يا عزيزي تتملقني. لقد كان لي ولا يزال نصيبي من الجمال، ولكن إذا كان للمرأة خمس بنات كبيرات وجب عليها أن تقلع عن التفكير في محاسنها. غير أنه يجب عليك من غير شك أن تذهب لزيارة مستر بنجلي حين يأتي إلى هنا».

«أؤكد لك أن هذا أكثر ما أستطيع أن أعدك به».

«ولكن عليك أن تنظر في أمر بناتك. إن عليك في واقع الأمر أن تذهب، لأننا نحن يستحيل علينا أن نزوره إذا لم تزره أنت».

«إنك دون ريب تعنين أكثر مما يجب بصغائر الأمور. ولست أشك في أن مستر بنجلي يسره بلا ريب أن يراكن، وسأرسل معك بضعة أسطر أؤكد له فيها رضائي عن زواجه بمن يختار من البنات أيا كانت، وإن كان عليّ أن أذكر كلمة طيبة عن لزي الصغيرة».

«أحب ألا تفعل شيئاً من هذا، فليست لزي أحسن من سائر أخواتها في قليل أو كثير، ولكنك أنت لسبب ما تفضلها عنهن على الدوام».

فرد عليها بقوله: «ليس لإحداهن ما يحبب الناس فيهن، فكلهن سخيفات جاهلات كغيرهن من البنات، ولكن لزي تتمتع بشيء من النشاط أكثر من أخواتها».

«كيف تعيب بناتك يا مستر بنت بهذه الطريقة؟ إنك ليسرك أن تغضبني، وإنك لا ترحم أعصابي المرهقة».

«إنك يا عزيزتي تخطئين في فهم قصدي، إني أجل أعصابك كل الإجلال، فهن صديقاتي القديمات، وقد سمعتك تذكرينهن طوال السنين العشرين الماضية».

«آه، إنك لا تعرف ما أقاسيه من ألم».

وكان مستر بنت مزيجا غريبا من البديهة السريعة، والفكاهة الحادة، والتحفظ، والتقلب المفاجيء في عقله. وقد بلغ من هذا كله حدا لم تكف معه تجارب ثلاث وعشرين سنة لأن تمكن زوجته من فهم أخلاقه على حقيقتها. أما عقلها هي فقد كان فهمه أقل صعوبة من فهم عقل زوجها، ذلك أنها كانت امرأة حمقاء، إذا غضبت خالت نفسها مريضة، وكان كل ما تعنى به في الحياة أن تزوج بناتها، وكل ما يسرها أن تزور وتزار وتستمع إلى الأخبار.

الفصل الثاني

وكان مستر بنت من أسبق الناس إلى زيارة مستر بنجلي. ذلك إنه كان ينتوى على الدوام أن يزوره، وإن كان قد ظل إلى آخر لحظة يؤكد لزوجته أنه لن يقوم بهذه الزيارة. لكنه كشف عن خبر زيارته في مساء اليوم التالي لمجيئه.

وذلك أن مستر بنت رأى ابنته الثانية تصلح من شأن قبعتها فخاطبها على حين غفلة بقوله:

«أرجو يا لزي أن تعجب هذه القبعة مستر بنجلي».

فردت عليه أمها بحدة: «ليس لدينا وسيلة لمعرفة ما يعجب مستر بنجلي، لأننا لا يسمح لنا بزيارته».

فأجابتها إلزبث بقولها: «ولكنك تنسيين يا أماه أننا سنلتقي به في حفلة الرقص العامة، وأن مسز لنج قد وعدت أن تعرفنا به».

«لست أعتقد أن مسز لنج ستفعل شيئاً من هذا القبيل، فإن لها هي أيضا ابنتي أخت، وهي امرأة أنانية لا وفاء لها، ولست أحسن الظن بها».

وقال مستر بنت: «ولست أنا أيضا ممن يحسنون بها الظن، ويسرني أن أعرف أنك لا تثقين بأنها ستؤدي لك خدمة ما».

ولم تشأ مسز بنت أن تجيب بشيء عن هذا، ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها، فأخذت تؤنب إحدى بناتها بقولها:

«بربك يا كتي لا تسترسلي في هذا السعال وارحمي أعصابي بعض الرحمة».

فقال والدها: «إن كتي لا تتبصر قط في أمر سعالها، وهي تختار له أسوء الأوقات».

فردت عليه كتي بقولها: «إني لا أسعل لأسلى نفسي بالسعال. ومتى تكون حفلة رقصك الثانية يا لزي؟».

«بعد أسبوعين من غد».

وقالت أمها: «نعم هي كذلك، ولن تعود مسز لنج إلا في اليوم الذي قبل الحفلة مباشرة، ولهذا لن يكون في وسعها أن تعرفنا به، لأنها لن تكون في نفسها قد عرفته».

«وإذن ففي وسعك يا عزيزتي أن يكون لك الفضل على صديقتك فتقدمي مستر بنجلي لها».

«هذا مستحيل يا مستر بنت، مستحيل إذا كنت أنا نفسي لا أعرفه، كيف ترضى أن تغضبني إلى هذا الحد؟».

«إذا لم ترضى أنت أن تقومي بهذا الواجب فسأقوم به أنا بنفسي».

وحدقت البنات بأبصارهن في والدهن، وقالت مسز بنت: «قول هراء، قول هراء! لقد ضقت ذرعا بالمستر بنجلي».

«يؤسفني أن أسمع ذلك منك؛ ولِمَ لم تقولي لي هذا من قبل؟ وما من شك في أنني لو كنت قد عرفت هذا كله في صباح هذا اليوم لما زرته قط. إن هذا لشيء يؤسف له كل الأسف؛ ولما كنت قد قمت بالزيارة فعلا، فلا مفر لنا من معرفته الآن».

وكانت الدهشة التي استولت على السيدات هي عين الدهشة التي يرغب هو فيها، ولعل مسز بنت كانت أكثرهن دهشة، على أنها بعد أن ذهب عنها انفعالها الأول أعلنت أن هذا هو ما كانت تتوقعه على الدوام.

«ألا ما أحسن ما فعلت! لقد كانت واثقة من أنك تحب بناتك حبا لا يستطيع معه أن تهمل التعرف برجل مثله. ألا ما أشد سروري مما فعلت، وإن في زيارتك إياه في صباح اليوم دون أن تنطق بكلمة واحدة عن هذه الزيارة حتى الآن لفكاهة طيبة أيضاً».

وقال مستر بنت وهو يغادر الحجرة متعبا من فرحة زوجته: «والآن يا كتي، إن في وسعك أن تسعلي بقدر ما تشائين».

وقالت أمهن بعد أن أغلق الباب: «ما أحسن والدكن أيها البنات؛ ولست أعرف كيف تستطعن أن تكافئنه على حنوه، وفي وسعي أن أقول

لكن إن الإنسان لا يسره كثيرت في هذه الأيام أن يتعرف بأناس جدد في كل يوم، ولكننا نحن نفعل كل شيء إكراما لكن. ولست أخشى يا ليديا أن أقول إن المستر بنجلي سيراقصك في حفلة الرقص التالية وإن كنت أنت صغرى بناتي».

وقالت ليديا بقوة: «لست أخشى شيئاً، فإني أطولهن قامة وإن كنت أصغرهن سنا».

وانقضى سائر المساء في التكهن عن الوقت الذي سيرد فيه زيارة مستر بنت، وفي الاتفاق على موعد دعوته للعشاء.

الفصل الثالث

ولم يكف كل ما وجهته مسز بنت بمساعدة بناتها من الأسئلة في هذا الموضوع لأن يستخلص من زوجها وصفا كافيا للمستر بنجلي؛ ولذلك اضطررن أخيرا أن يقبلن معلومات غير مباشرة جاءت بها إليهمن جارتهن السيد لوكاس، وكان حديثها عنه مرضيا غاية الرضا. فقد كان شابا في مقتبل العمر ذا جمال بارع، وكان رقيق الطبع إلى أقصى حد، وأكثر من هذا كله أنه اعتزم أن يحضر حفلة الرقص التالية، وأي شيء أدعى من هذا إلى الغبط؟

وجاء مستر بنجلي بعد أيام قليلة ليرد الزيارة إلى المستر بنت، وجلس معه في مكتبته نحو عشر دقائق. وكان يرجو أن يرى الفتيات اللاتي سمع الشيء الكثير عن جمالهن، ولكنه لم ير إلا أباهن. أما الفتيات وأمهن فقد كن أسعد منه حظا، فقد أتيحت لهن فرصة مشاهدته من إحدى نوافذ بيتهن العليا، ورأينه لابسا سترة زرقاء، ممتطيا ظهر جواد أدهم.

وأرسلت إلى المستر بنجلي دعوة للعشاء بعد ذلك الوقت بقليل، وكانت مسز بنت قد رتبت أمر العشاء ترتيبا يشهد بمهارتها في فن التدبير حين جاء جواب يؤجل الأمر كله. ذلك أن مستر بنجلي قد اضطر إلى أن يتغيب في المدينة (لندن) في اليوم الثاني، ومن أجل ذلك لم يكن في مقدوره أن ينال شرف تلبية الدعوة. وضايق ذلك مسز بنت كثيرا، فقد بدأت

تخشى أن يكون مستر بنت على سفر في كل يوم من مكان إلى مكان، وألا يستقر قط في نذر فيلد كما هو واجبه. ولكن ليدى لوكاس هدأت مخاوفها بأن ابتدعت فكرة أن ذهابه إلى لندن لم يكن إلا لدعوة عدد كبير من الناس إلى حفلة الرقص. ثم شاع عقب ذلك على الفور أن مستر بنجلي سيجيء معه باثنتي عشرة سيدة وبسبعة من كرام الرجال. وأحزن البنات مجيء هذا العدد الكبير من السيدات، ثم ذهب عنهن حزنهن إذ وجدن حين دخلت الجماعة إلى المرقص أنها لا تزيد عن خمسة أشخاص: مستر بنجلي، وأختيه، وزوج كبراهن، وشاب آخر.

وكان مستر بنجلي جميل الطلعة دمث الأخلاق، وكانت أختاه سيدتين ظريفتين تبدو عليهما الأناقة. ولم يكن يظهر على المستر هرست زوج أخته أكثر من أنه سيد مهذب. أما مستر دراسى فسرعان ما استلفت أنظار من في الحجرة بقامته الطويلة الظريفة، ومعارفه الجميلة، وما ذاع عنه بين الحاضرين جميعا قبل أن يمضي على دخوله خمس دقائق من أن إيراده السنوي يبلغ عشرة آلاف جنية. وظل الجمع ينظر إليه نظرة إعجاب نصف وقت السهرة تقريبا، حتى أثارت تصرفاته اشمئزازهم فقضى بذلك على حظوته لديهم.

وكان مستر بنجلي قبل ذلك قد تعرف إلى جميع ذوي الشأن في الحجرة، ورقص كل الرقصات، وأسف لانتهاء الحفلة في وقت مبكر. وذكر أنه سيقيم هو نفسه حفلة في نذرفيلد. ألا ما أعظم الفرق بينه وبين صديقه! لقد رقص مستر دراسى مرة واحدة لا غير مع مسز هرست ومرة

مع الآنسة بنجلي، وأبى أن يتعرف بأية سيدة أخرى، وقضى بقية السهرة يتمشى في الحجرة، وزارد كره المسز بنت لسلوكه حين استخف بإحدى بناتها.

وذلك أن إلزبث بنت قد اضطرتها قلة الرجال لي الخروج من حلبة الرقص دورتين، وكان مستر دارسى في إحداهما واقفا بالقرب منها بحيث تستطيع أن تستمع إلى حديث بينه وبين مستر بنجلي. وكان هذا قد خرج من الرقص بضع دقائق ليستحث صديقه على أن يشترك فيه.

وقال له: «تعال يا دارسى. إني لا أحب أن أراك واقفا وحدك هذه الوقفة السخيفة، وخير لك كثيراً أن ترقص».

«لا! إني لا أرقص، فأختاك ترقصان، وليس في الحجرة كلها سيدة أخرى أحب أن أراقصها».

وصاح بنجلي: «إني لا أحب كل هذه العناية بصغار الأمور ولو كان ذلك من أجل مملكة! وقسم لك بشرفي أني لم ألتق في حياتي كلها بمثل هذا العدد من الفتيات الظريفات».

وقال مستر دارسى وهو ينظر إلى كبرى بنات مسز بنت: «إنك أنت تراقص الفتاة الجميلة الوحيدة فيهن».

«نعم؛ هي أجمل مخلوق رأيته في حياتي! ولكن إحدى أخواتها تجلس بالقرب منك وهي جميلة جدا، وفي وسعي أن أقول إنها ظريفة كل الظرف. فاسمح لي أن إطلب إلى من تراقصني أن تقدمك لها».

فقال له: «أيتهمن تقصد؟ ثم ألتفت وألقى نظرة عاجلة على إلزبث، فلما التقت عيناه بعينيها أدار بصره عنها وقال في فتور: «إنها حسنة، ولكنها ليس لها من الجمال ما يغريني أنا بها».

ثم سار من مكانه وبقيت إلزبث لا تشعر بكثير من الحب نحوه. على أنها قصت القصة بحماسة عظيمة على صاحباتها لأنها كانت تسر من كل ما هو سخيف ».

ومر المساء بوجه عام وأسرة مستر بنت كلها مغتبطة مسرورة. ورأت مسز بنت أن الجماعة القادمة من نذر فيلد قد أعجبت كثيرا بجين كبرى بناتها. فقد راقصها مستر بنجلي مرتين، واختارتها أختاه لتوجها إليها نظراتهما. ولم تكن جين أقل سرورا من أمها بهذا، وإن كان سرور البنت كان أهدأ من سرور أمها. وأحست إلزبث بسرور جين؛ وبذلك عادت الأسرة مغتبطة إلى لنجبورن وهي قرية من قرى هرتفورد شير كانت تسكن فيها وكانت هي أعظم سكانها شأنا.

الفصل الرابع

وكان يعيش غير بعيد من لنجبورن أسرة تربطها بأسرة بنت أواصر قوية. وكان رب الأسرة السيد وليم لوكاس قد اشتغل قبل ذلك بالتجارة في بلدة مرتين وجمع لنفسه فيها ثروة لا بأس بها، وارتقى إلى مرتبة الفرسان. ولعله قد شعر بهذا الشرف أكثر مما كان يجب أن يشعر به، فقد بعث فيه اشمئزازاً من عمله، ومن إقامته في بلدة صغيرة ذات سوق؛ ومن أجل ذلك ترك عمله وبلدته، وآوى هو وأسرته إلى بيت على بعد ميل من مريتن سماه: دار لوكاس. ولكنه كان مع ذلك رجلا ودودا جميل المعاشرة رغم افتخاره بمقامه العظيم.

وكانت زوجته امرأة طيبة غاية الطيبة، لا تبلغ من المهارة حدا يجعلها جارة ذات قيمة لمسز بنت. وقد رزقت هي وزوجها عدة أبناء، وكان أكبرهم فتاة عاقلة ذكية في السابعة والعشرين من عمرها، وكانت صديقة عزيزة لإلزبث.

وكان من ألزم الأشياء أن تلتقي بنات لوكاس وبنات بنت ليتحدثن عن حفلة من حفلات الرقص، وجاءت بنات لوكاس إلى لنجبورن في اليوم الذي أعقب الحفلة لهذا الغرض عينه.

وقالت مسز بنت بأدب متكلف إلى الآنسة لوكاس:

«لقد بدأت أنت السهرة خير بداية يا شارلوت. لقد كنت أنت أول من اختارها مستر بنجلي».

«نعم ولكن ظهر أنه يحب من اختارها بعدي أكثر مني».

«آه! أظنك تقصدين جين، لأنه راقصها مرتين. وما من شك في أن هذا قد يفهم منه أنه يعجب بها. ويلوح بالتأكيد كأنه– على أن هذا قد لا يؤدي إلى شيء ما كما تعرفين».

فأجابتها شارلوت قائلة: «ولكن مستر دارسى غير جدير بأن يستمع الناس إليه جدارة صديقه، أليس كذلك؟ مسكينه إليزه! أيقول عنها إنها حسنة لا أكثر؟».

«أرجوك ألا توحي إلى ليزى بأن تستاء من سوء معاملته، فهو رجل بلغ من سوء الطبع حدا يجعله حبه لأي إنسان من سوء حظ الذي يحبه، وقد أخبرتني مسز لنج مساء أمس أنه جلس بجوارها نصف ساعة لم يفتح فيها فاه مرة واحدة».

وقالت جين! «وهل أنت واثقة مما تقولين يا ؟؟ أليس ثمة غلطة صغيرة في هذا؟ لقد رأيت مستر دارسى يكلمها ما في ذلك شك».

نعم وكان ذلك لأنها سألته في آخر الأمر عن مبلغ حبه لنذر فيلد، ولم ير بدا من أن يجيب عن سؤالها، ولكنها قالت إنه غضب من أن يكلمه أحد».

وقالت جين: «لقد أخبرتني الآنسة بنجلي أنه لا يكثر من الحديث إلا إذا كان بين من يعرفهم معرفة جيدة. فهو مع هؤلاء لطيف إلى أبعد حد».

«إني لا أصدق كلمة واحدة من هذا يا عزيزتي».

وقالت الآنسة لوكاس: «إني لا أعبأ بعدم حديثه إلى مسز لنج، ولكنني كنت أود لو أنه راقص إليزا».

وقالت أمها: «لو كنت مكانك يا لزي لما راقصته في المرة الآتية».

وقالت الآنسة لوكاس: «إن كبرياءه لا يسوءني بقدر ما يسوءني الكبرياء عادة، وذلك لأن له عذرا في هذا الكبرياء عادة، وذلك لأن له في هذا الكبرياء. إن الإنسان لا يدهشه أن يزهو بنفسه شاب مثله ظريف، ومن أسرة طيبة، واسع الثراء، ممتع بكل شيء».

وأجابتها إلزبث بقولها: «ذلك حق لا ريب فيه، وقد كان يسعني أن أصفح عن كبريائه لو لم يذل هو كبريائي».

الفصل الخامس

وزارت سيدات لنجبورن سيدات نذرفيلد بعد وقت قصير، وردت الزيارة لهن رداً رسمياً، وظلت أخلاق الآنسة بنت الظريفة تستميل قلب مسز هرست والآنسة بنجلي، وأبدت مسز هرست والآنسة بنجلي رغبتهما في أن توثقا صلاتهما بابنتي مستر بنت الكبيرتين، وإن كانتا قد وجدتا أن مسلك الأم لا يطاق، وأن الأختين الصغيرتين لا تستحقان أن يعني الإنسان بالتحدث إليهما. وتلقت جين هذه الرعاية بسرور لا يعادله سرور، أما إلزبث فقد رأت الكبرياء باديا في طريقة معاملتهما لكل إنسان حتى أختها نفسها، ولهذا لم تحبهما؛ غير أنه لم يكن ثمة شك في أن أخاهما كان يعجب حقا بجين. ولاحظت إلزبث أن جين أخذت تستسلم إلى ذلك الميل الذي كانت تشعر به نحوه من باديء الأمر، وأنها كانت توشك أن تشغف به حبا.

وشغلت إلزبث بملاحظة التفات مستر بنجلي إلى أختها، فلم يدر بخلدها أنها هي نفسها توشك أن تصبح موضع العناية من صديقه. وذلك أن مستر دارسى قلما كان يعترف في باديء الأمر بأنها فتاة لطيفة؛ فقد نظر إليها في حفلة الرقص ولم يعجب بها، ولما التقيا المرة الثانية لم ينظر إليها إلا لكي ينتقدها، ولكنه ما كاد يقرر أنه لا يكاد يوجد في وجهها شيء من المعارف الطبية حتى أخذ يرى أن نظرات عينيها السوداوين الجميلة قد أضفت على هذا الوجه ذكاء غير عادي. ولم تعرف هي شيئاً

عن هذا التغير، فقد كانت لا ترى فيه إلا أنه هو الرجل الذي لم يكن ظريفا في أي مكان، والذي ير فيها من الجمال ما يكفي لأن يغريه بمراقصتها.

وبدأ يتوق إلى أن يعرف عنها أكثر مما كان يعرف.

واجتمعت في بيت سير وليم لوكاس في يوم من الأيام جماعة كبيرة من الناس، وشغل عدد من السيدات وضابطان أو ثلاثة ضباط بالرقص في أحد أطراف الحجرة، ووقف مستر دارسى بجوارهم، وأخذ سير وليم يحاول أن يغريه بالحديث. وحدث أن كانت إلزبث وقتئذ تتجه نحوه، فلاح له أن يجاملها مجاملة لطيفة فناداها قائلا:

«لم لا ترقصين يا عزيزتي الآنسة إليزا؟ اسمح لي يا مستر دارسى أن أقدم لك هذه الفتاة لتراقصك، وهي ممن يُرغب في مراقصتهن أشد رغبة. ولست أشك في أنك لن ترفض أن ترقص إذا وجدت مثل هذا الجمال أمامك». ثم أخذ بيدها وأوشك أن يسلمها إلى مستر دارسى، ولم يكن هذا ليرفض الإمساك بها، وإن كان هذا العمل قد أدهشه أشد دهشه، ولكنها هي جذبت يدها على الفور وقالت لسير وليم بشيء من الارتباك:

«في الحق يا سيدي، أني ليست لي أقل رغبة في الرقص، وأرجوك ألا تظن أني قد اتجهت إلى هذه الناحية لأرجو من أحد أن يراقصني».

وطلب إليها مستر دارسى فيي أدب ووقار أن تأذن له بشرف الرقص معها، ولكن ذلك لم يجد نفعا، فقد أصرت إلزبث على رأيها، ولم يفلح سير وليم فيي أن يثنيها عن عزمها بما بذل من الجهد لإقناعها، وكان مما قاله لها:

«إنك تفوقن سائر الفتيات في الرقص يا آنسة إليزا، ولهذا فإن من القسوة أن تحرميني من أن أنال سعادة التمتع برؤيتك. ومع أن هذا السيد يكره اللهو بوجه عام، فإني لا أشك في أنه لن يرى قط ما يمنعه أن يتفضل علينا براقصتك نصف ساعة».

فأجابته إلزبث وهي تبتسم: «إن مستر دارسيفيض رقة وأدبا»، ثم ولت وجهها عنه. ولم تكن هذه المقاومة من جانبها مما يحط من قدرها في عين هذا السيد، وأخذ يفكر فيها بشيء من الإعجاب.

الفصل السادس

ولم تكن قرية لنجبورن تبعد عن بلدة مريتن أكثر من ميل واحد؛ وهي مسافة يسهل على الفتيات أن يجتزنها، وكان ذلك يغْرهن بالذهاب إليها ثلاث مرات في الأسبوع أو أربما ليقمن بواجب الزيارة والإجلال لإحدى الخالات، وهي مسز فلبس التي تزوجت بأحد المحامين، وليتطلعن فوق ذلك في حانوت للقبعات لا يبعد إلا قليلا عن الطريق العام. وكانت كترين وليديا أصغر فتيات الأسرة أكثرهن ترددا على خالتهن، وكان في مقدورهما في كل زيارة أن يتسقطا بعض الأخبار، وقد استمدتا في هذا الوقت كثيرا منها، وذلك لأن فرقة من الجند قدمت إلى جوار البلدة على أن تبقى في ذلك المكان طول الشتاء، ومن أجل هذا لم تكونا تتحدثان إلا عن الضباط.

واستمع مستر بنت إلى صخبهما في هذا الموضوع صباح يوم من الأيام ثم قال لهما بحدة.

«إن الذي أستطيع أن أستنتجه من طريقة حديثكما أنكما بنتان من أسخف بنات هذه البلاد».

وخجلت كترين فلم تحر جوابا، أما ليديا فلم تنقطع عن الحديث. وقالت مسز بنت: «إني ليدهشني يا عزيزي أن يكون لك مثل هذا الاستعداد لأن تظن بناتك سخيفات، والحق أنهن جميعا من أنبه الفتيات».

«تلك هي المسألة الوحيدة التي لا نتفق فيها».

وحال بين مسز بنت وبين ردها على هذا القول دخول خادم يحمل وسالة إلى الآنسة بنت مرسلة من نذر فيلد. وأبرقت عينا مسز بنت من فرط السرور، وأخذت تصيح متحمسة بينا كانت ابنتها تقرأ الرسالة:

«خبريني يا جين، من الذي بعث الرسالة؟ وماذا فيها؟ وماذا يقول؟ هيا يا جين، عجلي وخبرينا».

وقالت جين: «إنها من الآنسة بنجلي، ثم أخذت تقرؤها بصوت عال.

بستان نذرفيلد

في ١٠ أكتوبر

«عزيزتي جين

هل تتفضلين بأن تتعشي معي ومع لويزا اليوم. سنكون وحدنا فعجلي بالمجيء قدر استطاعتك حين تصل إليك هذه الرسالة. إن أخي وسائر الرجال سيتعشون مع الضباط.

صديقتك المخلصة على الدوام

كرولين بنجلي

وقالت مسز بنت: «سيتعشون في الخارج! إن هذا لأمر يؤسف له أشد الأسف».

«وقالت جين: «هل أستطيع أن أستقل العربة؟».

«لا يا عزيزتي، فخير لك أن تمتطي جوادا، لأن من المرجح أن تمطر السماء، فلا تجدين بدا في هذه الحال من البقاء هناك طول الليل».

وقالت إلزبث: «وستكون هذه خطة حسنة، إذا كنت واثقة من أنهم لن يعرضوا عليها أن يوسلوها إلى منزلها».

«ولكن الرجال سيكونون قد ساتقلوا عربة مستر بنجلي في ذهابهم إلى مريتن».

«إني أفضل كثيرا أن أستقل العربة».

ولكن أباك يا عزيزتي لن يكون في غنى عن الجوادين، فهو في حاجة إليهما في المزرعة».

من أجل هذا اضطرت جين أن تذهب على ظهر جواد، وسارت أمها خلفها حتى الباب تشيعها بكثير من النبوءات الطيبة أن يكون يومها يوما ممطرا عبوسا. وتحققت آمالها، فلم تكد جين تسير غير بعيد حتى أمطرت السماء مدرارا، وقلقت عليها أختاها، ولكن أمها ابتهجت بذلك. وظل المطر يتساقط طول المساء لم ينقطع قط، وما من شك في أن جين لم تكن تستطيع العودة.

وقالت مسز بنت: «لقد كانت فكرتي هذه في واقع الأمر فكرة موفقة «كأنما كانت هي وحدها صاحبة الفضل كله في نزول المطر.

ولم يكد ينتهي الإفطار في صباح الغد حتى جاء خادم من نذرفيلد يحمل رسالة من جين إلى إلزبث تقول فيها إنها مريضة.

وقال مستر بنت بعد أن قرأ الرسالة بصوت عال: «نعم، يا عزيزتي، إذا أصيبت ابنتك بمرض خطر– إذا ماتت– فإن من أسباب السلوى أن نعرف أن ذلك كله كان جريا وراء مستر بنجلي، وتنفيذاً لأوامرك».

«لا، لست أخشى أن تموت، فإن الناس لا يموتون من إصابات بالبرد تافهة؛ إنها ستلاقي عناية طيبة».

وشعرت إلزبث بقلق حقيقي، فاعتزمت أن تذهب إليها، ولما كانت لم تعط العربة ولم تكن تعرف كيف تركب الخيل، فلم يكن أمامها من سبيل إلا أن تذهب إليها راجلة.

وقالت لها أمها:«كيف يبلغ من سخفك أن تمشي في وسط هذه الأقذار كلها! إنك لن تكوني خليقة بأن ينظر إليك أحد حين تصلين إلى هناك».

«سأكون خليقة بأن أرى جين، وهذا كل ما أرغب فيه».

وقالت كترين وليديا: «سنصحبك حتى مريتن، وقبلت إلزبث أن يرافقاها، وسارت الفتيات الثلاث معا».

وافترقن عند مريتن، وواصلت إلزبث سيرها منفردة، فأخذت تعبر الحقول حقلا بعد حقل، بخطا سريعة ونشاط لا يصحبه صبر، حتى رأت نفسها أخيرا على مرأى من البيت، وهي متعبة القدمين، قذرة الجوربين، محمرة الوجة من حرارة جسمها وكثرة مشيها.

وأثار قدومها دهشة عظيمة، واعتقدت إلزبث أن مسز هرست والآنسة بنجلي تزدريانها لأنها مشت على قدميها ثلاثة أميال في الصباح الباكر وفي مثل جو ذلك اليوم. على أنها استقبلت في البيت استقبالا حسنا، فيه كثير من الأدب، وبدا في سلوك أخيهما شيء أكثر من الأدب– بدت فيه الفكاهة العذبة والرقة؛ أما مستر دارسى فلم ينطق إلا

بالقليل، فقد كان في شغل عن الحديث بالإعجاب بالبريق الذي علا وجهها من طول المشي.

ولم تكن أختها قد نامت مطلقا، وكانت محمومة. وعادها الطبيب وأشار عليها أن تعود إلى الفراش، ووعد بأن يرسل لها بعض الدواء، واشتدت وطأة الحمى، وأصيبت بصداع شديد.

وبقيت إلزبث معها حتى الساعة الثالثة، ثم رأت أنه لا بد لها أن تعود إلى منزلها، غير أن جين أظهرت امتعاضها من فراقها، فاضطرت الآنسة بنجلي أن تدعوها للبقاء في ندرفيلد مؤقتا، وقبلت إلزبث هذه الدعوة شاكرة.

الفصل السابع

ودعت إلزبث للعشاء في منتصف الساعة السابعة، ولم تكن جين قد شعرت بشيء من التحسن؛ وحين سمعت الأختان هذا القول كررتا ثلاث مرات أو أربعا قولهما إن ذلك يحزنهما كثيرا، وإن الإصابة بالبرد الشديد صدمة قوية، وإنهما لا تحبان أن تمرضا، ثم لم تفكرا بعد ذلك في الأمر.

وكان ما يعوزهما من العطف الحقيقي على جين، حين لا تكون حاضرة معهما فعلا، يذكر إلزبث بما كانت تضمره لهما من بادىء الأمر من كراهية.

والحق أن أخاهما كان هو الشخص الوحيد الذي كان يبدو عليه قلق على جين حقيقي غير متكلف. وكانت عنايته بإلزبث نفسها عناية يغتبط بها أعظم اغتباط، وقد حالت هذه العناية بينها وبين الاعتقاد بأنها ضيف ثقيل غير مرغوب فيه، كما كان يراها في اعتقادها غيره من أهل الدار.

ولما انتهى العشاء عادت من فورها إلى جين، ولم تكد تخرج من الحجرة حتى أخذت الآنسة بنجلي تطعن فيها. فقالت أن أخلاقها سيئة للغاية– فهي مزيج من الكبرياء وسوء التربية، ولم تكن تحسن الحديث، وأسلوبها فيه رديء، وهي عديمة الذوق، ليست على شيء من الجمال، وكان هذا بعينه هو رأي مسز هرست، وزادت عليه قولها:

«وجملة القول أنها ليس فيها ما تحمد عليه إلا أنها تحسن المشي، ولن أنسى قط منظرها في صباح اليوم، لقد كان أقرب الأشياء إلى الحيوان البري».

«لقد كانت كذلك حقا يا لويزا، وكان شعرها أشعث».

«نعم، وثوبها! أرجو أن تكوني قد رأيت ثوبها، لقد غطى الطين منه ست بوصات، ليس لدي في ذلك شك قط».

وقال بنجلي: «لقد اعتقدت أن الآنسة إلزبث بنت كانت تبدو على أحسن حال حين دخلت الحجرة صباح اليوم، أما ثوبها القذر فلم يستلفت نظري مطلقاً، ويدل قدومها على حبها لأختها حبا يسر له الإنسان غاية السرور».

وقالت مسز بنجلي بصوت يشبه الهمس: «أخشى يا مستر دارسى أن تكون مغامرتها هذه قد أثرت بعض الشيء في إعجابك بعينيها الجميلتين».

فأجابها بقوله: «كلا، لم يؤثر فيّ قط، بل أن عينيها قد أبرقتا من أثر رحلتها».

وتلى ذلك صمت قصير بدأت بعده مسز هرست الحديث من جديد:

«إني مشغوفة حبا بجين بنت– إنها في الحق بنت لطيفة جدا– وإني لأتمنى من صميم قلبي أن تتزوج زواجا طيبا، ولكني أخشى ألا تتاح لها تلك الفرصة نظراً لحال أبويها وانحطاط منزلة أسرتها».

وأجابها دارسى: «ما من شك في أن سيقلل من حظها في الزواج برجل ذي مركز حسن».

ولم يرد بنجلي على هذا الوقل جوابا، ولكن أختيه وافقتا عليه موافقة تامة، وظلتا بعض الوقت تضحكان من انحطاط منزلة أسرة صديقتهما.

الفصل الثامن

وقضت إلزبث معظم الليل في حجرة أختها، فلما أصبح الصباح طلبت أن ترسل رسالة إلى لنجبورن تدعو فيها أمها أن تأتي لزيارة جين، لتتأكد بنفسها من حالها. وأرسلت الرسالة على الفور، وجاءت مسز بنت تصحبها ابنتاها الصغيرتان إلى نذر فيلد عقب فراغ الأسرة من تناول طعام الإفطار.

ولو أن مسز بنت وجدت جين في خطر حقيقي لأمض ذلك قلبها، ولكنها حين اقتنعت بعد رؤيتها أن مرضها ليس فيه شيء من الخطورة لم تكن ترغب في شفائها العاجل، لأنها إذا استعادت صحتها انتقلت على الأرجح من نذرفيلد، ومن أجل هذا لم تستمع إلى اقترحته ابنتها من عودتها إلى منزلها. وكذلك لم ير الطبيب، وقد جاء لعيادتها في الوقت الذي جاءت فيه أمها تقريباً، أنه يحسن بها أن تعود.

وكررت مسز بنت شكرها إلى مستر بنجلي لشفقته على جين، واعتذرت له عما سببه وجود لزي أيضاً من مضايقة له. ورد عليها مستر بنجلي رداً ينطوي على الكرم والإخلاص، وأرغم أخته الصغرى على أن تكون هي الأخرى مؤدبة. ومع أنها في واقع الأمر قد اضطلعت بهذا الواجب مرغمة، فإن مسز بنت قد رضيت بهذا وغادرت البيت بعد قليل.

وانقضى اليوم كما انقضى أمسه لم يفترق عنه إلا في القليل، وأخذت جين تستعيد صحتها ببطء. وجلست إلزبث مع الجماعة في مساء ذلك اليوم في حجرة الاستقبال، وشرعت تقوم ببعض أِغال الإبرة، وأخذ مستر دارسى وقتئذ يكتب رسالة.

ولما فرغ من كتابتها طلب إلى الآنسة بنجلي وإلى إلزبث أن تطرباه بشيء من الموسيقى، فقامت الآنسة بنجلي بلهفة إلى البيان وطلبت إلى إلزبث في أدب أن تتقدمها، ورجت إلزبث في مثل هذا الأدب أن تعفى من هذا، وجلست الآنسة بنجلي إلى البيان.

وغنت مسز هرست مع أختها، وبينا كانت الأختان مشغولتيين بالعزف والغناء لم يكن يسع إلزبث إلا أن تلاحظ أن عيني مستر دارسى كانتا في معظم الأحيان تحدقان فيها. وقلما كانت تدري كيف تظن أنها هي موضع إعجاب رجل عظيم مثله، ولكن أغرب من هذا في اعتقادها أن يكون سبب نظراته إليها أنه يبغضها. ولم يكن يسعها إلا أن تظن أنها استفلتت نظره لخطأ فيها، وهو ظن لم يؤلها، فلم تكن هي تحبه حباً يجعلها تعني برأيه فيها.

وبعد قليل من ذلك الوقت، وبينا كانت الآنسة بنجلي تضرب نغمة مرحة اسكتلندية، اقترب مستر دراسى من إلزبث وقال لها:

«ألا تشعرين يا آنسة بنت بميل شديد إلى أن تنتهزي هذه الفرصة لترقصي؟».

وابتسمت ولكنها لم تحر جوابا، وأعاد هو السؤال مصحوبا ببعض الدهشة من سكوتها.

فقالت له: «آه! لقد سمعتك من قبل، ولكني لم أستطع أن أقرر من فوري أي شيء أجيبك به. وأنا أعرف أنك كنت تريدني أن أقول نعم حتى بإذدراء ذوقي، ولكني يسرني على الدوام أن أفوّت عليك قصدك، ولهذا قررت أن أقول لك إني لا أريد أن أرقص، ولك أن تزدريني الآن إذا جرؤت على ذلك».

«في الحق أنني لا أجرؤ».

ودهشت إلزبث من أدبه لأنها كانت تتوقع بدلا من هذا أن يستاء منها، ولكن سلوكها كان مزيجاً من اللطف والمرح، ومن أجل ذلك كان من الصعب أن تسيء إلى مخلوق، ولم يكن دارسى قد أخذت بلبه امرأة كما أخذت به إلزبث. وفي الحق أنه كان يعتقد أنه لولا ضعة أسرتها لوقع في خطر حبها.

ورأت الآنسة بنجلي ما يكفي لأن يبعث الغيرة في قلبها، أو لعل قلبها قد حدثها بذما يكفي لأن يبعث هذه الغيرة، وزاد من قوة تطلعها بعض الشيء إلى شفاء صديقتها العزيزة جين رغبتها في أن تتخلص من إلزبث.

وكتبت إلزبث في صباح اليوم التالي، بناء على اتفاق بينها وبين أختها، رسالة إلى أمها ترجوها أن ترسل إليهما العربة في ذلك اليوم.

وردت عليهما مسز بنت تقول إن العربة لا يمكن أن تصلهما قبل يوم الثلاثاء، بيدأن إلزبث صممت تصميما قاطعا على ألا تبقى في هذه الدار بعدئذ ولم تكن تتوقع كثيراً أن يطلب إليها البقاء، ولهذا حرضت جين على أن تستعير عربة مستر بنجلي على الفور.

وسمع رب الدار بأسف شديد أنهما تنتويان مفارقة داره بهذه السرعة، وحاول أكثر من مرة أن يقنع الآنسة بنت بأن في انتقالها خطراً عليها، ولكن جين كان من عادتها أن تثبت على رأيها إذا اعتقدت أنها على حق، ورحب مستر دارسى بهذا النبأ، فقد كانت إلزبث تستميله أكثر مما يجب، وكان حكيما إذ صمم على أن يحذر من أن يصدر منه ما يدل على إعجابه بها؛ وثبت على هذا العزم فلم يتكلم إليها طول ذلك اليوم إلا في القليل النادر. ومع أنهما قد قضيا نصف ساعة منفردين في وقت من الأوقات، فقد ظل منكبا على كتابه ولم يلق إليها بمجرد نظرة، وحدث الفراق في اليوم التالي، ولم ترحب بهما أمهما ترحيباً عظيما، ولكن أباهما قد سره حقا أن يراهما، ذلك أن حديث السهرة كان قد فقد كثيراً من مرحه ومعظم معانيه في أثناء غياب جين وإلزبث.

الفصل التاسع

وقال مستر بنت لزوجته وهما يفطران في صباح الغد: «أرجو يا عزيزتي أن تكوني قد أمرت بإعداد عشاء طيب في هذا اليوم، لأني أتوقع أن ينضم بعض الناس إلى أسرتنا فيه».

«ومنذا الذي تقصد يا عزيزي؟ لست أعرف أن أحداً سيأتي لزيارتنا. وأنا واثقة من هذا، إلا إذا مرت بنا مصادفة شارلوت لوكاس؟ وأظن أن عشاءنا يبلغ من الجودة درجة تليق بها».

«إن الشخص الذي أتحدث عنه سيد ومن غير أهل هذا البلد».

وأبرقت عينا مسز بنت: «سيد ومن غير أهل هذا البلد! لست أشك في أنه مستر بنجلي! إنك يا جين لم تنطقي بكلمة واحدة عن هذا النبأ، ولكن– رباه! ما أسوأ حظنا! إنا لن نجد قطعة من السمك في هذا اليوم! دقي الجرس يا عزيزتي ليديا. إن على أن أتحدث إلى الطاهي على الفور».

وقال لها زوجها: «ليس هو مستر بنجلي، بل هو شخص لم أره طول حياتي».

وأثار هذا القول دهشة الجميع، وسره أن يتلقى أسئلة حماسية من زوجته وبناته الخمس في وقت واحد.

وأخذ يسلي نفسه بعض الوقت بتشوفهما، ثم أفصح عن الأمر بقوله: «لقد تلقيت رسالة من وقت قصير. وكانت هذه الرسالة من قريبي مستر كلنز، وهو رجل إذا مت قد يخرجكن جميعا من هذا البيت متى شاء».

وكان من سوء حظ بنات مستر بنت أن أملاكه وهي مزرعة تغل ألفي جنية في العام كانت أملاكا محبوسة، يجب أن تنتقل بعد موته بحكم القانون إلى أقرب الذكور إليه من أسرته وهو قريب له بعيد».

وصاحت به زوجته قائله: «آه يا عزيزي، إنني لا أطيق أن أستمع إلى هذا يذكر أمامي، وأرجوك ألا تتحدث عن هذا الرجل البغيض». لقد كان هذا من الموضوعات التي تخرجها عن دائرة العقل.

«ولكن الطريقة التي يعبر بها عن قصده قد تهدىء من حدتك بعض الشيء إذا استمعت إلى رسالته».

«بيت القس بهتز فورد

قرب وسترهام

كنت

في ١٥ أكتوبر

«سيدي العزيز

إن الخلاف الذي كان قائماً بينك وبين المرحوم والدي طيّب الله ثراه كان على الدوام بقلق بالي أشد القلق؛ وكثيراً ما أردت بعد موته أن أسوي هذا النزاع.

«والآن قد قطعت في هذا الموضوع برأي. ذلك أنني بعد أن أصبحت من رجال الدين قد أسعدني الحظ بأن لحظتني بعنايتها السيدة المصونة كترين ده بورج أرملة سير لويس ده بورج، فتفضلت بأن حبتني بمنصب قسيس هذه الناحية، وهو منصب عظيم الشأن، وسأبذل جهدي في أن سلك فيه سلوكا ينم عن شكري وإجلالي لهذه السيدة الجليلة.

«هذا إلى ما أشعر به– وأنافس– من أن الواجب يقتضيني أن أكون رسول السلم بين جميع الأسر القريبة مني، ولهذا السبب أرى أن ا أعرضه عليك من أسباب الصداقة سيكون جديراً بأعظم الثناء، وأنك ستتفضل بأن تغض النظر عن مسألة وراثتي لأملاكك.

«وإني ليضايقني أن أكون أنا السبب في إيذاء بناتك الحسان، وأرجو أن تسمح لي بأن أقدم اعتذاري عن هذا، وأن أؤكد لك حسن استعدادي لأن أصلح الخطأ الذي أصابهن.

«فإن لم يكن لديك ما يمنعك أن تستقبلني في بيتك فإني أعرض عليك أن أزورك أنت وأسرتك في الساعة الرابعة من يوم الأثنين في الأسبوع المقبل، وأحب أن أحظى بكرم ضيافتك إلى يوم السبت من الأسبوع الذي يليه».

«وأرجو أن تبلغ يا سيدي تحياتي إلى زوجتك وبناتك مقرونة بإجلالي لهن ومازلت.

صديقك الذي يرجو لك الخير.

وليم كلنز».

وقال مستر بنت وهو يطوي الرسالة: «وإذن فنحن نتوقع زيارة من هذا السيد رسول السلام في الساعة الرابعة، ويظهر أنه شاب مخلص مؤدب».

«وإن فيما يقوله عن إصلاح الخطأ الذي أصاب البنات لينطوي على بعض التعقل».

وقالت جين: «وإن كان يصعب على الإنسان أن يحرز كيف يريد أن يفعل هذا».

وكان أكثر ما أثار دهشة إلزبث هو إجلاله العظيم للسيدة كترين. أما أمها فإن رسالة مستر كلنز قد ذهبت بكثير من حقدها عليه، وأخذت تتهيأ لاستقباله بهدوء دهش منه زوجها وبناتها.

الفصل العاشر

وجاء مستر كلنز في موعده، واستقبلته الأسرة كلها بأدب جم. نعم إن مستر بنت لم يتكلم إلا قليلاً، ولكن السيدات كن على استعداد للتحدث، ولاح أن مستر كلنز نفسه لم يكن في حاجة إلى ما يشجعه على الحديث، وأنه لم يكن يميل إلى الصمت. وكان رجلا طويل القامة، ممتلىء الجسم، في الخامسة والعشرين من عمره، يدل مظهره على الجد، وتُشعر أخلاقه بالتحفظ. ولم يطل جلوسه حتى أخذ يهنيء مسز بنت على ما رزقت من فتيات حسان، وأظهر إعجابه بجمالهن، وزاد على ذلك أنه لا يشك في أنها ستراهن في وقت قريب وقد تزوجن زواجا طيبا. ولم يكن هذا الحديث مما يعجب بعض سامعيه، ولكن مسز بنت أجابت من فورها:

«لست أشك يا سيدي في أنك رجل رقيق القلب، وإني لأتمنى من صميم قلبي أن يتحقق ذلك، وإلا فإنهن سيكن بائسات حقا. إن الأمور تتقرر بطريقة عجيبة».

«إني لا أجهل يا سيدتي ما تلاقيه بناتك الحسان من متاعبت، ولكن في وسعي أن أؤكد للفتيات أنني جئت وأنا على استعداد لأن أعجب بهن؛ ولن أقول أكثر من هذا الآن، ولكني قد أستطيع أن أزيد عليه بعد أن نزداد تعارفا».

وقطعت عليه حديثه دعوته إلى العشاء، وابتسمت الفتيات كل واحدة منهن للأخرى؛ ولم يكن وحدهن موضع إعجاب مستر كلنز، فقد كان يلقي بنظرات فاحصة على الردهة وحجرة الطعام وما فيها من أثاث، ويثني عليها أطيب الثناء. وكان من شأن ثنائه هذا أن يكون له أحسن الأثر في قلب مسز بنت لولا ذلك الفرض المؤلم الذي افترضته، وهو أنه ينظر إلى هذا كله على أنه سيصبح في المستقبل ملكا له. وأعجب هذا الإعجاب نفسه بالعشاء حين جيء به، ورجا أن يعرف أية واحدة من بنات عمه الحسان كان لها فضل هذا الطهي الذي لا يعادله في حسنه طهي سواه. ولكن مسز بنت أصلحت خطأه في هذه النقطة بأن أكدت له أن في مقدور الأسرة أن يكون لها طاه مجيد، وأن بناتها لم تكن لهن علاقة ما بالمطبخ. واعتذر لها عما أغضبها من قوله، فأعلنت بنغمة رقيقة أنها لم تر فيما قال إساءة قط، ولكنه مع ذلك ظل يعتذر لها حوالي نصف ساعة.

ورأى مستر بنت بعد العشاء أن الوقت قد حان للتحدث بعض الحديث هو المجلي فيه، وذلك بأن قال إنه كان موفقا كل التوفيق في أن تكون السيدة كترين ولية نعمته. ولم يكن في مقدور مستر بنت أن يختار موضوعا للحديث خيراً من هذا الموضوع، فقد أخذ مستر كلنز يثني عليها بصوت عال، وشرع يعبر عن شعوره وهو يبالغ في تواضعه وخضوعه إلى أقصى حد. ولما حان وقت الشاي كان قد سمع منه كل ما يريد سماعه، وسره أن يأخذ الشاب إلى حجرة الاستقبال، ويطلب إليه أن يقرأ شيئاً إلى السيدات. وأجاب مستر كلنز هذا الطلب من فوره، وجيء له بكتاب، ولكنه أجفل حين رآه، واعتذر عن عدم القراءة، وأعلن أنه لم يقرأ الروايات

في حياته. ونظرت إليه كتي مندهشة، وصرخت ليديا صرخة عالية، ثم عرضت عليه كتب أخرى فاختار منها مجموعة مواعظ. وولت ليديا مدبرة حين فتح الكتاب، وقبل أن يتم قراءة ثلاث صفحات بصوت ممل قطعت عليه ليديا قراءته بأن أخذت تتحدث إلى أمها. وأمرتها أختاها الكبيرتان أن تمسك لسانها عن الكلام، ولكن مستر كلنز استاء من ذلك كثيراً، ووضع الكتاب إلى جانبه.

الفصل الحادي عشر

ولم يكن مستر كلنز رجلا حسن الإدراك، ولم تتح له الفرص التي تمكنه من أن يصلح من شأنه كثيراً في هذه الناحية بالتعلم أو الاختلاط بالناس. وكانت أخلاقه خليطا من الكبرياء والذلة.

وقد أتاح له حسن حظه أن توصي به السيدة كترين ده بورج حينما خلا منصب راعي هنزفورد. وجاء له هذا المنصب بمسكن حسن ودخل طيب فقرر أن يتزوج. ولما جاء يسعى للصلح مع أسرة لنجبورن كان يفكر وقتئذ في زوجة، وكان يرمي إلى اختيار زوجة له من بنات الأسرة. وكانت هذه هي الخطة التي يريد بها أن يصلح ما سيصيبهن من أذى حين يرث أرض أبيهن، وكان يظن أنها خطة تنطوي على كرم عظيم.

ولم يغير خطته هذه بعد أن شاهدهن. فلم يلبث وجه كبرى بنات بنت الجميل أن استلفت نظره، وظلت هي التي استقرت عليها اختياره طوال الليلة الأولى. ثم تبدل هذا في الليلة الثانية، فقد تلقى من مسز بنت في حديث خاص معه دام ربع ساعة تحذيراً بشأن جين هذه التي وقع اختياره عليها: «فأما بناتها الصغريات فإنها لا تستطيع أن تأخذ على عهدتها أن تقول– لا تستطيع أن تجيب جواباً قاطعاً– أما أبنتها الكبرى فإنها لابد أن تذكر مجرد ذكر– أنها تشعر أن من واجبها أن تشير إلى أنها يحتمل أن تُخطب بعد وقت قصير».

ولم يكن على مستر كلنز إلا أن يستبدل إلزبث بجين. وقد حدث هذا على الفور، فقد كانت إلزبث هي التالية لجين في المولد والجمال، وكانت هي التي تخلفها بطبيعة الحال.

وعدت مسز بنت هذا العرض عرضاً ذا قيمة، وكانت كبيرة الرجاء في أن تتزوج اثنتان من بناتها في وقت قريب، وأصبح الناس إليها.

الفصل الثاني عشر

وأرادت ليديا أن تذهب إلى مريتن في صباح ذلك اليوم سيرا على قدميها، ورضيت أخواتها جميعاً أن يذهبن معها عدا ميري فقد فضلت أن تقضي وقتها في القراءة. وأتفق أن يصحبهن مستر كلنز بعد أن طلب إليه ذلك مستر بنت، فقد كان بنت شديد الرغبة في أن يتخلص منه، وأن ينفرد بنفسه في مكتبته لأن قريبه لم يكن ينقطع عن الكلام.

وظلت البنات يستمعن في أدب إلى ملاحظاته، حتى دخلن مريتن. فلما دخلنها لم يكن في وسعه هو أن يستلفت أنظار الصغيرات منهن، فقد أخذت أعينهن تنتقل في الحال من أول الشارع إلى آخره تبحث عن الضباط.

ولكن السيدات جميعهن قد استلفت أنظارهن على الفور شاب لم يرينه من قبل، ذو مظهر ينم على كرم المحتد، يسير في صحبة ضابط على الجانب المقابل لهن من الطريق. وأثرت فيهن جميعا طلعة الرجل البهية، وكانت كتي وليديا تعرفان الضابط، ولذلك قررتا أن تعرفا من عساء أن يكون صديقه إذا استطاعتا إلى ذلك سبيلا. فتقدمتا سائر الجماعة إلى الجانب الآخر من الطريق، وهما تتظاهران بأنهما في حاجة إلى شيء من حانوت مقابل لهما؛ وكان من حسن حظها أنهما وصلتا إلى الطوار في اللحظة التي وصل فيها السيدان ذلك المكان نفسه. وخاطبهما مستر دني الضابط على الفور، واستأذنهما في أن يقدم إليهما صديقه مستر وكهام، وقال إنه انضم إلى الجيش من وقت قريب جداً.

وبدا الشاب جذاباً ساحراً إلى أقصى حد؛ فقد كان جميل الوجه، بهي الطلعة، باشا، طلق اللسان. وكانت الجماعة كلها تتحدث في سرور وانشراح حين استلفت أنظارهم وقع حوافر الجياد، ورؤى دارسى وبنجلي في الشارع على ظهر جوادين. ولما أبصر الرجلان السيدات بين الجماعة أقبلا عليهن من فورهما، وبدأا تحياتهما بالأدب المألوف. وكان بنجلي أكثرهن حديثا، كما كانت كبرى بنات بنت موضع الأنظار، وقال إنه كان ذاهباً في طريقه إلى لنجبورن ليستفسر عن صحتها. وعقب مستر دارسى على هذا بانحناءة، وكان يريد ألا يسدد نظراته إلى إلزبث حين وقعت عيناه فجأة على الرجل الغريب. وأتفق أن شاهدت إلزبث وجهيهما وكلاهما ينظر إلى الآخر، وأدهشها ما كان لهذا اللقاء من أثر فيهما، فقد تغير وجهاهما فأبيض أحدهما وأحمر الآخر. ومس ميتر وكهام بعد لحظات قليلة قبعته بيده– وكانت هذه تحية لم يكد يعني مستر دارسى بالرد عليها. فماذا عسى أن يكون معنى هذا؟ لم ين من المستطاع أن تتصور هذا المعنى، ولم يكن من المستطاع كذلك ألا تتوق إلى معرفته.

ولم تمض إلا لحظة حتى استأذن مستر بنجلي السيدات، وسار في طريقه مع صديقه من غير أن يظهر أنه قد لاحظ ما حدث.

وقصت إلزبث على جين وهما عائدتان إلى المنزل ما دار بين السيدتين وما شهدته بعينها، ولكن جين لم تكن أقدر من أختها على أيضاح هذا المسلك.

الفصل الثالث عشر

وكانت الفتيات قد قبلن وهن في مريتن دعوة من خالتهن للعشاء ولعب الوراق، وأقلت العربة مستر كلنز وقريبانه الخمس إلى البلدة في ساعة مناسبة. ولما دخلت الفتيات حجرة الاستقبال سرهن أن يسمعن أن مستر وكهام قد قبل دعوة خالتهن إليه، وأنه كان وقتئذ في المنزل.

ولما عرف هذا واتخذ الحاضرون مجالسهم، وجد مستر كلنز فسحة من الوقت للحديث والنظر إلى ما حوله. وبدت للفتيات فترة الانتظار جد طويلة. على أنها انتهت آخر الأمر، وانضم إليهن الرجال، ولما دخل مستر وكهام الحجرة شعرت إلزبث أن إعجابها به وهي تفكر فيه لم يكن لغير سبب معقول.

وكان مستر وكهام هو الرجل السعيد الذي اتجهت إليه أنظار كل سيدة في الجمع تقريبا، وكانت إلزبث هي الفتاة السعيدة التي جلس آخر الأمر إلى جانبها، وبدا أن مستر كلنز قد انحطت منزلته فلم يصبح ذا شأن بعد أن وُجد له في أعين السيدات منافسون في منزلة مستر وكهام وضباط الجيش. ولكنه كان يجد بين الفينة والفينة مستمعة رقيقة القلب، هي مسز فلب التي كانت تقدم له ما يحتاج من القهوة.

وكانت إلزبث راغبة كل الرغبة في أن تستمع إلى حديث مستر وكهام، وإن لم تكن تأمل أن تستمع إلى ما كانت تتوق إلى سماعه أكثر من غيره وهو تاريخ تعرفه بمستر دارسى. غير أن تطلعها إلى معرفة هذا التاريخ قد تحقق بطريقة لم تكن قط منتظرة. فقد بدأ مستر وكهام نفسه هذا الموضوع بأن سأل في تردد كم من الزمن قضى مستر دارسى في هذه الناحية.

فأجابت إلزبث: «نحو شهر»، ولم تشأ أن ينقطع الحديث عند هذا الحد فواصلته قائلة: «وقد علمت أنه رجل ذو أملاك واسعة في دربي شير».

فأجابها مستر وكهام قائلا: «نعم، ومزرعته بمبرلى مزعة عظيمة لا تقل غلتها عن عشرة آلاف جنية في العام. ولم يكن في مقدورك أن تعثري على شخص يقدم لك من المعلومات عنها ما أقدمه أنا– لأني أتصل بأسرته من يوم مولدي».

وكان لا بد أن تظهر الدهشة على وجه إلزبث.

«ومن حقك يا آنسة بنت أن تدهشي لهذا القول أشد دهشة، بعد أن رأيت لقاءنا الفاتر بالأمس. فعل تعرفين مستر دارسى حق المعرفة؟».

فصاحت إلزبث بحماسة: «إني أعرفه بقدر ما أرغب في هذه المعرفة، فقد قضيت معه عدة أيام في بيت واحد وأظنه أنساناً غير ظريف».

وسكت مستر وكهام قليلا ثم قال: «ليس في وسعي أن أدعي أني آسف لسماع هذا، فقد كان مسلكه معي مسلكا مخجلا. غير أني يسعني أن أسامحه في كل شيء إلا أن يخيب آمال والده، وأن يسيء إلى ذكراه».

ووجدت إلزبث أن الموضوع يزداد طرافة.

وواصل مستر وكهام حديثه قائلا: «لقد ربيت لأكون من رجال الدين، وأوصى لي مستر دارسى بأحسن منصب ديني كان في مقدوره أن يوصي به إذا ما خلا هذا المنصب من شاغله. فقد كان هو أبي حين تعميدي، وكان يحبني كثيراً. وقد ظن أنه ضمن لي مستقبلي، ولكن المنصب الديني كان من نصيب شخص غيري».

وقالت إلزبث: «رباه! ولكن هذا كان خرقا للقانون بالتأكيد؟».

«لم تكن ألفاظ الوصية واضحة كل الوضوح. فقد شاء مستر دارسى أن يفسر ألفاظ أبيه على أنها توصية بشروط، وأن يقول إني لا حق لي في المنصب الديني لسوء سلوكي. ولكن الحقيقة إنه يبغضني».

«هذا شيء فظيع، وهو يستحق من أجله أن يشهر به علنا».

«ليس في وسعي أن أشَهِّر به هو قبل أن أنسى أباه».

وأثنت عليه إلزبث لهذه العواطف النبيلة.

«ولقد ولدنا في مكان واحد ونشأنا معا. وكان والدي وكيل المرحوم المستر دارسى في مزارعه، وكان يقضي وقته كله في العناية بأملاك موكله».

«يدهشني ألا يكون كبرياء مستر دارسى قد حمله على أن ينصفك– لقد كنت أظن أنه أوتي من الكبرياء ما يحول بينه وبين نذالته».

وأجاب مستر وكهام قائلا: «وهذا أمر عجيب لأن كبرياءه قد حمله في كثير من الأحيان على أن يكون رجلا سمحا يجود بماله، ويكرم ضيفه، ويعين زراعه، ويفرج كرب البائسين؛ وهو إلى ذلك أخ فخور بإخوته يشفق كل الشفقة على أخته ويعني بالمحافظة عليها أشد العناية».

«ترى أي صنف من البنات تكون الآنسة دارسى؟».

وهز وكهام رأسه ثم قال! «كنت أود أن أقول إنها من الصنف الذي يمكن أن يحب، ولكنها شبيهة بأخيها فوق ما يجب. فهي ذات كبرياء عظيم إلى أقصى حد».

«ويدهشني ما بين مستر دارسى ومستر بنجلي من صداقة. فكيف يحب مستر بنجلي، وهو الذي يبدو كأنه الفكاهة مجسمة، مثل هذا الرجل! إنه لا يعرف حقيقة مستر دارسى».

«لعله لا يعرف حقيقته، ولكن في وسع مستر دارسى أن يسر الناس متى أراد، فهو يستطيع أن يكون رفيقا طيبا، إذا رأى أن في ذلك فائدة.

وهو إذا وجد بين أقرانه في هذا العالم يختلف كل الاختلاف عنه إذا كان بين من هم أقل منه ثروة».

واستلفت نظر وكهام بعد ذلك بقليل ورود إسم السيدة كترين ده بورج على لسان مستر كلنز، فسأل إلزبث بصوت منخفض هل تعرف أسرتها تلك الأسرة.

«إنك تعرفين بطبيعة الحال أن السيدة، كترين ده بورج والسيدة آن دارسى أختان، وأنها لذلك خالة مستر دارسى هذا وسترث ابنتها الآنسة ده بوررج ثروة طائلة، ويظن إنها هي وابن خالتها سيتزوجان، فتجتمع بزواجهما المزرعتان».

وابتسمت إلزبث لهذا النبأ حين فكرت في الآنسة نبجلى، فيا لضيعة آمالها إذا كان قد وعد من قبل بأن يتزوج غيرها!

الفصل الرابع عشر

وقصت إلزبث على جين في اليوم الثاني ما دار بينها وبين مستر وكهام من حديث، واستمعت إليها جين بدهشة واهتمام؛ ولم تكن تدري كيف تصدق أن مستر دارسى يمكن أن يكون غير خليق بصداقه مستر بنجلي، بيد أنه لم يكن من طبعها أن ترتاب في صدق شاب له ما لو كهام من مظهر جميل جذاب.

وكان مما قالته: «إن في وسعي أن أقول إن الرجلين قد خدعا بطريقة مت لا تستطيع أن تتصورها».

واستدعت الفتاتان من الحديقة حيث كان هذا الحديث بدور بينهما حين قدم بعض من كانتا تتحدثان عنهم. فقد أجل مستر بنجلي وأختاه ليدعوا بأنفسهم أهل الدار إلى حفلة الرقص التي طال انتظارها في نذرفيلد والتي حدد موعدها في يوم الثلاثاء المقبل. وبدت على الفتاتين مظاهر الانشراح حين شاهدتا صديقهما العزيز مرة أخرى، وقالتا إنه قد مضى على لقائهما به دهر طويل. ولم يعر الزائرون سائر أفراد الأسرة إلا شيئاً قليلاً جداً من الإلتفاف، وكانوا يتجنبون لقاء مسز بنت قدر المسطاع، ولم يتحدثوا كثيراً مع إلزبث، ولم يتحدثوا بشيء ما إلى غيرها من الفتيات.

ووقعت فكرة الحفلة الراقصة في نذر فيلد برداً وسلاماً على قلوب كل أنثى في الأسرة، ورأت مسز بنت أن تعد هذه الحفلة يكريماً لابنتها الكبرى، ورأت في مجيء مستر بنجلي ليقدم الدعوة بنفسه بدل إرسال بطاقة لها بالطريقة

الرسمية المألوفة اعترافا بعظيم شأنها. وتصورت جين ما ستكون عليه السهرة من متعة في حضرة صديقتها والتفاف أختهما إليها، وفكرت إلزبث وهي منشرحة الصدر في أنها سترقص كثيراً مع مستر وكهام. أما ما كانت تتوقعه كترين وليديا من سعادة فلم يكن يتوقف على حادثة بمفردها أو شخص بمفرده، لأن كل ما كانتا ترغبان فيه هو كثرة المشتركين في الحفلة، وحتى ميري نفسها وهي المجدة الرزينة المحبة للدرس رضيت أن تشترك فيها.

وابتهجت إلزبث أعظم ابتهاج حتى لم تكن تستنكف أن تتحدث في غير ضرورة إلى مستر كلنز، فلم تر ما يمنعها أن تسأله هل في نيته أن يقبل دعوة مستر بنجلي؛ وقد أدهشها منه قوله رداً على سؤالها إنه ذاهب إليه، ثم قوله بعد ذلك: «وإني أرجو أن أتشرف بمراقصة قريباتي الحسان جميعاً في أثناء السهرة، وإني أنتهز هذه الفرصة لأطلب إليك أن تراقصيني يا آنسة إلزبث وبخاصة في الدورتين الأوليين، وهو تفضيل لك أعتقد أن جين ابنة عمي ستفهمه على الوجه الصحيح، وتدرك أن ليس الباعث عليه استخفافي بها».

وشعرت إلزبث بأنها قد خدعت أتم خداع. لقد كانت تريد من صميم قلبها أن تراقص مستر وكهام في هاتين الرقصتين بعينهما. وها هي ذي تستبدل به غيره، وتستبدل به مستر كلنز! إن خفتها لم تأت في غير وقتها يوماً ما كما جاءت في هذه المرة، ومع هذا فإن الأمر لم يعد منه بد، ولذلك قبلت ما عرضه عليها مستر كلنز، وتظاهرت بأكثر ما تستطيعه من الرضا عن هذه الدعوة. ولم يكن ما توحي به الدعوة من فكرة أخرى غير الرقص ليزيد من سرورها. فقد خطر لها الآن لأول مرة أنه قد اختارها هي من بين أخواتها، لتكون سيدة بيت قيس الإقليم، وسرعان ما زادت هذه الفكرة تأكيداً لديها حين أبصرت ما

يوجهه إليها من مجاملات مطردة الزيادة. ومه أن هذه المجاملات كانت تثير فيها من الدهشة أكثر مما تثيره من السرور فإنه لم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخبرتها أمها أنها يسرها هي كل السرور احتمال زواجها بمستر كلنز. على أن إلزنث لم تشأ أن تفهم ما ترمي إليه أمها لأنها كانت موقنة بأن كل جواب تجيب به سيثير بينهما نزاعا شديداً. وقد لا يعرض مستر كلنز أمر زواجه بها مطلقاً، وليس ثمة فائدة ترجى من النزاع بسببه حتى يعرض الأمر.

ولو أنه لم تكن هناك حفلة رقص تتطلب الاستعداد لها والتحدث عنها، لكانت ابنتا بنت الصغيرتان في أسوأ حال وقتئذ. ذلك أنه قد تخللت الفترة بين توجيه الدعوة وبين إقامة الحفلة أيام مطيرة متتالية حالت بينهما وبين الذهاب إلى مريتن، فلم تذهبا إليها قط، ولم تستطيعا أن تريا لا خالتهما ولا الضباط، ولا أن تستمعا الأخبار، بل ما كانتا تطلبانه من زينات لأخذيتهما تضطرهما إليها الحفلة كان عليهما أن ترسلا رسولا يأتي به إليهما. وحتى إلزبث نفسها لم تكن يسهل عليها أن تصطنع الصبر على هذا الجو الذي أجل إلى حين زيادة معرفتها بمستر وكهام. ولم يكن شيء أقل شأنا من حفلة راقصة في يوم الثلاثاء ليقوى على جعل أيام الجمعة والسبت والأحد والأثنين التي قبل ذلك اليوم مما تستطيع كتي وليديا أن تصبرا عليها.

الفصل الخامس عشر

ولم يدر قط بخلد إلزبث أي شك في قدوم مستر وكهام حتى دخلت حجرة الاستقبال في نذرفيلد وبحثت عنه من غير طائل بين جماعة العسكريين (ذوي الستر الحمراء). وكانت قد بذلت في ملابسها عناية غير عادية، وأعدت نفسها وهي أكثر ما تكون بهجة لتأسر قلبه. وسرعان ما ساور عقلها ذلك الظن الرهيب وهو أنه قد أغفل عن قصد من بين الضباط الذين وجهت إليهم دعوة مستر بنجلي، وذلك إكراماً لخاطر مستر دارسى. ثم أخبرهم صديقه مستر دنى أسءن وكهام قد اضطر إلى الذهاب إلى لندن لبعض أعماله، وإن لم يكن قوله هذا مطابقاً للواقع. وأضاف إلى هذا قول:

«لست أظن أنه كان يذهب في هذه الساعة لو لم يكن راغباً في أن يتجنب لقاء أح.د السادة في هذه الدار».

وزاد هذا النبأ استياء إلزبث من مستر دارسى، ومع أنها قد حاولت أن تكون مرحة، فإن الرقصتين الأوليين إعاجتا إليها كآبتها. أما كلنز فقد كان رزيناً وسميحاً، يعتذر بدل أن يلتفت، كثير الخطأ في حركاته دون أن يعرف أنه يخطيء؛ ولهذا كله سبب لإلزبث من الخجل والبؤس كل ما يستطيع أن يسببه المرافص غير المرغوب فيه لمن يراقصها.

وراقصت بعده ضابطا، ثم رأت نفسها على حين غفلة تتلقى دعوة من مستر دارسى، وقد اخذتها هذه الدعوة على غرة فقبلتها دون أن تنتبه لما هي فاعلة.

واتخذت إلزبث مكانها بين الجماعة وهي مندهشة من المقام الذي أحرزته بأن سُمح لها أن تقف أمام مستر دارسى، وتبينت في أعين جاراتها ما لا يقل عن دهشتها هي نفسها. ولم يتكلما إلا قليلا جدا حتى انتهى الرقص إذ سألها تذهب هي وأخواتها كثيرا إلى مريتن سيرا على الأقدام. فأجابته بأنهن قد فعلن، ولم تستطع أن تكبت رغبة في نفسها فأضافت إلى ذلك قولها: «وحين تقابلنا هناك في ذلك اليوم، كنا نتعرف بشخص جديد».

وأحدثت هذه العبارة أثرها فيه على الفور، فعلت وجهه مسحة من الكبرياء أعظم مما كان باديا عليه، ثم نطق أخيرا فقال:

«لقد من الله على مستر وكهام بالصفات الطيبة التي تضمن له كسب الأصدقاء. أما أنه قد أوتي مثل هذه القدرة على الاحتفاظ بصداقة من يكسبه منهم، فذلك أمر أقل من هذا يقينا».

وأجابته إلزبث بقولها: «لقد كان من سوء حظه أن خسر صداقتك أنت».

وسكت دارسى فما أحار جوابا، وبدت منه رغبة في أن يغير موضوع الحديث، وفي هذه اللحظة عينها ظهر سير وليم لوكاس ووقف ليحييه وقال له:

«إن الإنسان يا سيدي العزيز لا يشهد كثيراً مثل هذا الرقص الممتاز، وإني لأرجو أن تتكرر كثيراً هذه المتعة الطيبة، وخاصة حينما يحدث حادث

نرغب فيه (وألقى نظرة على جين ومستر بنجلي) وما أكثر ما سيصل وقتئذ من التهاني!

وبدا أن إشارة سير وليم إلى صديقه كان لها أعظم الأثر فيه، واتجهت عيناه إلى بنجلي وجين، وكانا يرقصان معا والقتا عليهما نظرة جدية.

ولما انفض الرقص اتجهت الآنسة بنجلي نحو إلزبث ونظرت إليها نظرة احتقار ثم خاطبتها قائلة:

«لقد سمعت يا آنسة إليزا أنك مشغوفة بجورج وكهام، فاسمحي لي أن أنصحك نصيحة الصديقة ألا تثقي بما يقول. أما أن مستر دارسى قد أساء معاملته فهذا محض افتراء؛ فقد كان مستر دارسى على الدوام يعطف عليه أشد العطف، وإن كان وكهام قد عامله معاملة مخجلة. ولست أعرف تفاصيل المسألة، ولكني أعرف أن لا لوم مطلقا على مستر دارسى. إني لأرثي لك يا آنسة إليزا، ولكن الواقع أن الإنسان إذا فكر في أسرته لا يستطيع أن يجد خيرا منه كثيرا».

وردت عليها إلزبث وهي مغضبة: «إن ذنبه وأسرته حسب قصتك يبدوان متماثلين كثيرا».

فأجابتها مس بنجلي وهي مدبرة: «أرجو المعذرة عن هذا الفضول، إني كنت أقصد به الخير».

ثم بحثت إلزبث عن أختها الكبرى، وقابلتها هذه بابتسامة رضاء حلوة، قرأت فيها أختها إحساساتها، ونسيت إلى حين كل ما كان في نفسها، راجية أن تكون جين سائرة في طريق السعادة.

وأخذت جين تتحدث عن مستر وكهام تقول: «إن مستر بنجلي لا يعرف تاريخه كله، ولكنه لا يخالجه شك في شرف صديقه وحسن سلوكه، ويؤسفني أن أقول إن مستر وكهام حسب وصفه ليس شاباً جديراً بالاحترام».

«إن مستر بنجلي نفسه لا يعرف مستر وكهام».

«نعم؛ وهو لم يره إلا في صباح ذلك اليوم الذي التقيا فيه في مريتن».

«وإذن فإن ما يقوله عنه قد تلقاه عن مستر دارسى. إني راضية عن هذا كل الرضا. لقد دافع مستر بنجلي عن صديقه بإخلاص ولكني سأظل متمسكة برأيي».

ثم بدلت موضوع الحديث موضوعاً آخر يلذ لهما جميعا، وأخذت تستمع وهي مبتهجة إلى تلك الآمال السعيدة، وإن تكن متواضعة، التي تعلقها جين على شعور مستر بنجلي نحوها. ثم انضم إليهما مستر بنجلي نفسه فغادرتهما إلزبث وانضمت إلى الآنسة لوكاس.

وبعد قليل من ذلك الوقت جاء مستر لوكاس وهو منفعل أشد انفعال، فقد عرف أن مستر دارسى ابن أخت ولية نعمته السيدة كترين.

«إنك لن تعرفي نفسك بمستر دارسى؟».

«بل سأتعرف به».

ولم تأل إلزبث جهدا في أن تقنعه بالعدول عن رأيه، وأكدت له أن مستر دارسى سيعد هذا منه تطاولا على خالته لا تحية لها».

فأجابها بقوله: «معذرة إذا أهملت الانتفاع بنصيحتك، ولكني أرى في هذا الظرف أن تربيتي ودراستي تجعلاني أقدر من فتاة مثلك على معرفة الصواب». ثم انحنى إليها انحناءة كبيرة، وتركها ليتجه إلى مستر دارسى، فلما جاءه بدت عليه الدهشة ورد عليه بأدب فاتر.

وشعرت إلزبث بالخجل من قريبها وحولت عنايتها إلى موضوع آخر أحب إليها وهو مستقبل جين، وكان واضحا أن أفكار أمها تتجه في هذا الاتجاه نفسه. وما كان أشد غضب إلزبث حين جلست الجماعة إلى مائدة العشاء، ووجدت أن حديث مسز بنت إلى السيدة لوكاس كان كله يدور بصوت مرتفع عن رجائها في أن تتزوج جين عما قريب بمستر بنجلي، ولم تفلح إلزبث فيما حاولته من السيطرة على حديث أمها، وذلك لأنها رأت أن هذا الحديث كان يصل إلى مسامع مستر دارسى الجالس أمامهما. ولم يكن لكل ما بذلته من جهد في هذا السبيل أثر ما، واحمر وجه إلزبث من الخجل.

ولما فرغوا من العشاء أخذوا يتحدثون عن الغناء، وآلم إلزبث فوق آلامها السابقة أن رأت ميري تستعد لأن تطرب الجماعة. وكانت ميري أقل أخواتها الخمس جمالا، وكانت قد حاولت أن تعوض هذا النقص بأن

تزيد من ثقافتها، وكانت تحرص دائما على إظهار هذه الثقافة، ولكن قواها لم تكن قط مما يؤهلها للاضطلاع بهذا العمل، فقد كان صوتها ضعيفا، وكانت أخلاقها غير طبيعية. وأنصتت إليها إلزبث في قلق، وغنت ميري أغنيتين، وكان في وسع إلزبث أن ترى أختي مستر بنجلي تتبادلان بسمات الازدراء. ونظرت إلى أبيها ترجوه أن يتدخل في الأمر لئلا تسترسل ميري في الغناء طول الليل، ففهم الإشارة ومنعها من الغناء بلطف.

ولم تجد إلزبث في بقية السهرة شيئا من التسلية، فقد ظل مستر كلنز إلى جانبها، ولم يشأ أن يتركها وحدها، ولم يعرها مستر دارسى بعد ذلك أية التفاتة، حتى في الوقت الذي كان فيه واقفا بالقرب منها.

على أن مسز بنت قد عادت من نذرفيلد وهي راضية كل الرضا، فقد اقتنعت كل الاقتناع بأن جين سيتم زواجها في خلال ثلاثة أشهر أو أربعة، ولم تكن تقل عن هذا اقتناعا بأن بنتا أخرى من بناتها ستتزوج مستر كلنز. ولما كانت تحب إلزبث أقل مما تحب سائر بناتها فقد كانت ترى أنها غير جديرة بزوج خير من مستر كلنز.

الفصل السادس عشر

وكان اليوم الثاني بداية فصل جديد في لنجبورن، إذ تقدم فيه مستر كلنز رسميا بطلب الزواج. ذلك أنه بعد أن اعتزم أن يتقدم به من فوره دون ضياع الوقت، ولم تكن تعوزه الثقة بإجابة طلبه، تقدم به بطريقة منطمة على أحسن وجه، وصحبه بكل المراسم التي ظن أنها من متممات ذلك العمل. فلما وجد الآنسة بنت، وإلزبث، وإحدى الفتيات الصغيرات مجتمعات بعد طعام الإفطار خاطب أمهن قائلا:

«هل تسمحين لي يا سيدتي أن أتحدث إلى ابنتك الحسناء إلزبث على انفراد؟».

وقبل أن تجد إلزبث فسحة من الوقت إلا ما يكفي لأن يحمر فيها وجهها من الدهشة أجابت مسز بنت على الفور.

«نعم يا عزيزي، نعم بالتأكيد. وأنا واثقة من أن لزي لن تعارض. تعالي يا كتي، إني في حاجة إليك في الطابق العلوي». وبعد أن جمعت شغلها وبدأت تغادر المكان مسرعة نادتها إلزبث قائلة:

«أرجو ألا تبرحي المكان، إن مستر كلنز لابد أن يسامحني في هذا، إنه لا يستطيع أن يقول لي شيئا لا يرى أحد أن لا حاجة له بسماعه، وهأنذا أغادر المكان».

«لا، لا، هذا كلام لا معنى له يا لزي؛ إني أحب أن تبقي حيث أنت». ولما بدا أن إلزبث توشك أن تفر واصلت الأم حديثها قائلة: «إني أصر بالزي على أن تبقي وتستمعي إلى ما يقوله مستر كلنز.

ولم تشأ إلزبث أن تعصي هذا الأمر، وبعد أن فكرت فيه لحظة أدركت أن من الخير لها أن تنتهي من هذا الموضوع، ولهذا عادت إلى الجلوس. وابتعدت عنهما مسز بنت وكتي، وما كادتا تغادران المكان حتى بدأ مستر كلنز حديثه بقوله:

«صدقيني يا عزيزتي الآنسة إلزبث أن تواضع لا يزيدك إلا كمالا، ولو لم يكن لك هذا التمنع القليل لكنت أقل ظرفا في عيني مما أنت، ولكني أستسمحك في أن أوكد لك أن والدتك المحترمة قد أذنت لي أن أحدثك بما سأحدثك به. إني لم أكد أدخل هذه الدار حتى اخترتك أنت لتكوني رفيقتي في حياتي المستقبلة؛ أما الأسباب التي تدعوني إلى الزواج فهي أولا– أني أظن من الخير لكل قسيس أن يكون قدوة لغيره في هذا، وثانيا– أني واثق من أن الزواج سيزيد كثيرا من سعادتي، وثالثا– لأن السيدة كترين قد أشارت علي بالزواج.

«ولما كنت أنا الوارث لهذه الضيعة بعد موت أبيك المحترم فقد قررت أن أختار لي زوجة من بناته. وأنا عارف أنك لا تملكين مالا، ولن أعيب عليك هذا بعد زواجنا».

وكان لزاما عليها أن تقطع عليه حديثه الآن.

فصاحت قائلة: «لقد تعجلت يا سيدي فوق ما يجب؛ وإنك لتنسى أني لم أجبك بشيء. فتقبل شكري نظير ما أثنيت به عليَّ، ولكني لا يسعني إلا أن أرفض اقتراحك هذا».

فأجاب مستر كلنز بإشارة من يده: «إني أفهم جيدا أن من عادة الفتيات أن يرفضن الرجل الذي يقصدن في خبيئة أنفسهم أن يقبلنه حين يعرض عليهن الزواج أول مرة».

فصاحت إلزبث: «أقسم لك يا سيدي أني جادة كل الجد في رفضي».

وواصل مستر كلنز حديثه قائلا: «وحين أتحدث إليك في هذا الموضوع في المرة الثانية، أنتظر أن أتلقى منك ردا أجمل من هذا».

وحاولت إلزبث دون جدوى أن تجعله يؤمن بصدق قولها، ذلك أنه كان يعتد بنفسه وبمركزه فوق ما يجب. وأشار إلى أنها في حال من الفقر لا تسمح لها بأن تتلقى عروضا أخرى كثيرة. ولم يجد لديها هي جوابا عن إصراره على خداع نفسه، وغادرت المكان من فورها وهي صامتة، واعتزمت أن تلجأ إلى أبيها.

الفصل السابع عشر

وكانت مسز بنت تنتظر خاتمة هذا الحديث في الردهة، فلم تكد ترى إلزبث تفتح الباب، وتمر بها مسرعة نحو السلم، حتى دخلت حجرة الإفطار وأخذت تهنيء مستر كلنز وتهنيء نفسها. وتلقى مستر كلنز تمنياتها الطيبة ورد عليها بمثلها، ولكنه لما أخذ يبسط لمسز بنت تفاصيل ما جرى بينه وبين إلزبث من الحديث أدهشتها هذه المعلومات.

وقالت له: «ولكن ثق يا مستر كلنز أن لزي سترغم على أن تعود إلى صوابها. وسأتحدث إليها أنا نفسي على الفور، إنها فتاة حمقاء، ولا تعرف ما فيه الخير لها، ولكني سأرغمها على أن تعرفه. سأذهب إلى مستر بنت وأنا واثقة من أننا سنحسم الأمر معها».

ولم تشأ أن تترك له وقتا يرد فيه عليها، بل بادرت بالذهاب إلى زوجها، وصاحت به وهي تدخل المكتبة.

«أي مستر بنت؛ إنا في حاجة إليك على الفور، إن عليك أن تأتي لتأمر لوى بأن تتزوج مستر كلنز، لأنها أقسمت ألا تتزوجه».

ورفع مستر بنت عينيه عن الكتاب حين دخلت عليه الحجرة، وأحدق في وجهها بهدوء وعدم اكتراث، لم يغير منهما قط ما أفضت إليه به من المعلومات.

فلما فرغت من حديثها قال لها: «إني لم أحظ بفهم ما تقولين، عن أي شيء تتحدثين؟».

«عن مستر كلنز ولزي، لقد صرحت لزي بقولها إنها لن تتزوج مستر كلنز، وإذا لم تبادر أنت فإنه سيغير رأيه ويرفض الزواج بها».

«وماذا أفعل أنا في هذا الأمر؛ إنه يبدو لي عملا لا رجاء فيه».

«فلتكلم لزي في الأمر بنفسك، ولتخبرها بأنك تصر على زواجها به».

«مر بها أن تنزل، وستستمع إلى رأيي».

«ودقت مسز بنت الجرس، ودعيت الآنسة إلزبث إلى المكتبة».

فلما بدت قال لها والدها: «أقبلي يا ابنتي، لقد أرسلت في طلبك لأمر هام، لقد علمت أن مستر كلنز عرض عليك أن يتزوج بك. فهل هذا صحيح؟» وأجابت إلزبث بأنه صحيح. «حسن جدا، وقد رفضت عرضه هذا؟».

«نعم يا سيدي رفضته».

«حسن جدا؛ والآن نصل إلى النقطة المهمة. إن أمك تصر على أن تقبليه زوجا لك؛ أليس كذلك مسز بنت؟».

«بلى هو كذلك، وإلا فإني لن أراها بعد قط».

«إن أمامك يا إلزبث اختيارا ليس فيه حظ لمختار. إنك ستصبحين من هذا اليوم غريبة عن أحد والديك، فإن أمك لن تراك بعد اليوم إذا لم تتزوجي بمستر كلنز، ولن أراك أنا بعد اليوم إذ تزوجت به».

ولم يسع إلزبث إلا أن تبتسم لهذه الخاتمة التي اختتمت بها تلك البداية، ولكن مسز بنت خاب رجاؤها أشد خيبة؛ على أنها مع ذلك لم تستسلم لهذا الأمر، فأخذت تتحدث إلى إلزبث المرة بعد المرة، تحاول أن تقنعها تارة، وتتوعدها تارة أخرى، وظل مستر كلنز في هذه الأثناء صامتا مغضباً، فقد كان يحسن الظن بنفسه إلى درجة لا يفهم معها كيف ترفضه ابنة عمه.

وبينا كانت الأسرة على هذه الحال إذ جاءت شارلوت لوكاس لتقضي يوما معها، وحول مستر كلنز أنظاره إليه، ووجدت إلزبث في هذا ما يريح بالها أعظم راحة.

الفصل الثامن عشر

وذهبت البنات إلى مريتن مشيا على الأقدام في اليوم الثاني عقب الإفطار ليعرفن هل عاد مستر وكهام أو لم يعد؛ وانضم هو لهن وقت دخولهن المدينة ورافقهن إلى بيت خالتهن، وفسر لإلزبث سبب غيابه عن حفلة الرقص بقوله:

«لقد وجدت حينما اقترب موعد الحفلة أن من الخير ألا أقابل مستر دارسى– وأن وجودي في مكان واحد معه قد يكون مما لا أطيقه».

ووافقت إلزبث كل الموافقة على هذا الرأي السديد. وعاد معها وكهام وضابط آخر إلى لنجبورن، فاستطاعت بذلك أن تعرف به أمها وأباها.

وبعد عودتهن بزمن قليل تلقت الآنسة رسالة من نذرفيلد ففضنها على الفور؛ وشاهدت إلزبث أو وجه أختها قد تغير وهي تقرؤها. على أنها مع ذلك استطاعت أن تضبط عواطفها، ثم أخفت السرالة واشتركت في الحديث بمرحها المألوف، ولم يكد الضابطان يغادران البيت حتى نظرت جين نظرة إلى إلزبث تدعوها بها إلى أن تتبعها إلى الطابق الأعلى.

فلما دخلتا حجرتهما أخرجت جين الرسالة وقالت: «إن هذه الرسالة من كارولين بنجلي، وقد أدهشني ما فيها كثيرا. لقد غادروا جميعا

نذرفيلد قبل أن اصل الرسالة إلى يدي، وليس في نيتهم أن يعودوا إليها أبداً.

ثم شرعت تقرأ الرسالة بصوت عال، وقد عبرت فيها كاتبتها عن أسفها على فراق جين، وألحت عليها بأن تكتب إليها كثيرا. وقالت إلزبث إن هذا قول لا ينطوي على شيء من الإخلاص. وجاء في الرسالة أيضا أن لدى مستر بنجلي عملا في لندن، وأنه لن يعجل بمغادرة هذه المدينة مرة أخرى.

وقالت جين: «يتضح من هذا أنه لن يعود في هذا الشتاء».

«بل كل ما تدل عليه الرسالة أن الآنسة بنجلي لا تريد منه أن يحضر».

«ولم تظنين هذا؟ لابد أن يكون هذا من عمله فهو سيد نفسه، ولكنك لا تعرفين كل شيء، وسأقرأ إليك الفقرة التي تؤلمني بنوع خاص، فإني لن أخفي عنك شيئاًً من أسراري». ثم أخذت الرسالة تتحدث عن جمال أخت مستر دارسى الصغرى، وعن إعجاب بنجلي بها، وعن رجاء الأسرة أن يتزوج بها.

«أليس هذا واضحاً كل الوضوح؟ أليس في هذا ما يدل بجلاء على أن كارولين لا تريد أن أكون زوجة لأخيها، وأنها تعتقد أن أخاها لا يعني

بي؟ وهي تقصد– بعبارة رقيقة جدا– أن تحذرني. وهل يمكن أن يكون لأحد غير هذا الرأي في الموضوع؟».

«نعم يمكن أن يكون؛ لأن رأيي أنا يختلف عن هذا كل الاختلاف. لقد رأت الآنسة بنجلي أن أخاها يحبك، وهي تريد أن يتزوج بالآنسة دارسى، وستتبعه هي إلى المدينة راجية أن تستبقيه فيها، وتحاول أن تقنعك بأنه لا يعني بك».

وهزت جين رأسها.

«والحق يا جين أن عليم أن تصدقيني، فما من أحد رآكما مما يستطيع أن يرتاب في حبه أياك. ولكن المشكلة هي هذه:– إنا لست لنا الثروة ولا المكانة التي يريدونها».

وأخذت إلزبث تواسي أختها بحديثها، وما زالت بها حتى أقنعتها شيئاً فشيئاً بأن مستر بنجلي سيعود بعد زمن ويحقق كل رغبة يخفق بها قلبها. وقررت الأختان ألا تطلعا أمهما إلا على أن المقيمين في نذرفيلد قد غادروا المكان ليقضوا بعيدا عنه وقتا قصيرا.

الفصل التاسع عشر

ودعيت أسرة بنت للعشاء مع أسرة لوكاس، وفي هذه المرة أيضا تفضلت الآنسة لوكاس بأن قضت معظم الوقت تتحدث إلى مستر كلنز، وشكرتها إلزبث أعظم الشكر، وأكدت شارلوت لصديقتها أنها يسرها أن تؤدي لها أية خدمة. وكان هذا مجاملة طيبة، ولكن مجاملة شارلوت لها كان الباعث عليها شيئاً لم تفكر فيه إلزبث– لقد كانت تريد أن تجتذب مستر كلنز إليها، ولولا أنه كان على وشك الرحيل من لنجبورلشعرت أنها قد أفلحت في قصدها حين افترقت الأسرتان ليلا. ولكن مستر كلنز لم يضع وقته سدي، ففر من بين آل بنت بدهاء عظيم في الصباح الباكر من اليوم الثاني، وشاهدته الآنسة لوكاس من نافذة عليا وهو يتجه نحو بيت أبويها، فسارت لالتقابله مصادفة، وتلقت منه اقتراحه بزواجها في حديقة الدار.

وعرض الأمر على سير وليم والسيدة لوكاس ليوافقا عليه فوافقا من فورهما. فقد كانت ظروف مستر كلنز وقتئذ مما يجعل هذا الزواج زواجا طيبا لأبنتهما التي لن ترث منهما إلا القليل، وسيصبح هو في المستقبل وارث أملاك مستر بنت. ورضيت شارلوت بهذا. نعم إن مستر كلنز لم يكن ذا عقل ولا ظروف، ولكنها هي الأخرى كانت في السابعة والعشرين من عمرها، وقل أن يتاح لها رجل غيره يعرض عليها أن تتزوج به.

وصممت على أن تبلغ الخبر إلى آل بنت بنفسها، ولهذا طلبت إلى مستر كلنز ألا يقول لهم شيئاً حسن يعود إلى لنجبورن، وكان قد عقد النية على أن يغادرها في اليوم الثاني.

ولما أفضت شارلوت بالخبر إلى إلزبث على انفراد بلغت دهشتها حدا لم تستطع معه إلا أن تصيح:

«خطبت إلى مستر كلنز! يا عزيزتي شارلوت، إن هذا مستحيل!».

وأجابتها شارلوت بقولها: «إني أعرف ما تشعرين به. إنك لا بد أن تدهشي، وأن تدهشي كثيرا، لأن مستر كلنز كان يرغب من وقت قريب في أن يتزوج بك. ولكنني لست ممن يرغبن في الحياة الروائية الصاخبة العجيبة، بل كل ما أطلبه هو البيت الطيب المريح».

وردت عليها إلزبث بهدوء، وبعد صمت ممل عجيب عادت الفتاتان وانضمتا إلى سائر الأسرة، ولم يطل مكث شارلوت بعد هذا، وبقيت إلزبث تفكر فيما سمعته. ولم يكن ما في تقدم مستر كلنز بطلبين مختلفين للزواج في خلال ثلاثة أيام من الغرابة ليعد شيئاً جديراً بالذكر إذا قيس إلى ما في قبول طلبه الثاني وقتئذ. ذلك أنها لم تكن تتوقع أن تضحي شارلوت بكل إحساس راق في نظير المصالح الدنيوية. وأحست بأن صديقتها قد جللت نفسها بالعار، ولم تعتقد أن في مقدورها أن تكون سعيدة في الحياة التي اختارتها لنفسها. أما زوجة المستر بنت فلم تطق سماع النبأ، ومر أسبوع كامل لم تكن ترى فيه إلزبث إلا أنبتها على فعلتها، ومر شهر لم تتحدث

فيه إلى سير وليم أو إلى مستر لوكاس من غير أن تظهر لهما سوء الأدب. ولم تكن السيدة لوكاس يعوزها السرور حين كان في مقدورها أن تتحدث إلى مسز بنت عن اطمئنانها إلى أن بنتا من بناتها ستتزوج زواجا طيبا، وأخذت تتردد على لنجبورن أكثر من عادتها بعض الشيء لتخبر من فيها بأنها جد سعيدة. أما إلزبث وشارلوت فقد كان بينهما شيء من الجفاء عقد لسانهما عن الحديث في هذا الموضوع، وشعرت إلزبث بأنهما لا يمكن أن تقوم بينهما ثقة حقة بعدئذ، ولذلك وجهت التفاتها إلى أختها جين، وأظهرت لها من الحب أعظم مما كانت تظهره من قبل، وأخذت رغبتها في سعادتها تزداد في كل يوم.

الفصل العشرون

ولم يكن غياب مستر بنجلي الدائم ليريح بال جين أو إلزبث، وحتى إلزبث نفسها بدأت تخشى أن تفلح أخواته أو ملاهي لندن في أن تبقيه بعيدا عنهما، وإن لم تكن تخشى أن تتبدل عواطفه نحوها. وكانت جين تحب أن تخفي قلقها، فلم تذكره قط لأحد، ولكن قلما كانت تمر ساعة دون أن تنطق فيها أمهم بعبارة تتطلب من جين كل ما وهبت من الصبر للسكوت عليها.

وكانت مسز بنت في حقيقة الأمر في حال يرثى لها أشد الرثاء، وكانت لاتفتأ تظهر دهشتها من عدم عودة مستر بنجلي، وكانت تكره أن ترى الآنسة لوكاس، ولما كانت هي التي ستخلفها في ذلك البيت فقد كانت تغار منها وتحقد عليها. وكلما جاءت شارلوت لزيارة الأسرة اعتقدت هي أنها لا تفكر إلا في الساعة التي تستحوذ فيها على البيت.

وكانت جين قد كتبت إلى الآنسة بنجلي، وجاءها الرد منها وقتئذ فبدد كل ما كان يخالج عقلها من وساوس، فقد جاء في الجملة الأولى منه أنهم جميعا قد استقروا في لندن، وأنهم سيقضون فيها فصل الشتاء. واختتمت الرسالة بإظهار أسف أخيها لأنه لم يجد متسعا من الوقت يستأذن من أصدقائه قبل سفره.

وهكذا ضاع الأمل، ضاع الأمل كله، وتوزع قلب إلزبث بين العطف على أختها، والغضب من الآخرين. وكانت في خبيئة نفسها تلوم مستر بنجلي لضعفه الذي جعله ينصاع لآراء أخواته، ووسوست لها نفسها أن مستر دارسى كانت له هو الآخر يد في هذا، فكان ذلك من أسباب غضبها عليه.

وصبرت جين على آلامها بظرف ورقة، وحاولت أن تقنع نفسها بأن حب مستر بنجلي إياها لم يكن إلا وهما تخيلته هي، وأن اللوم في ذلك واقع عليها وحدها.

الفصل الحادي والعشرون

وسر مستز بنت أن تستقبل أخاها وزوجته في غد ذلك اليوم، وقد جاءا من لندن ليقضيا عيد الميلاد في لنجبورن كعادتهما في كل عام. وكان مستر جاردنر رجلا عاقلا مهذباً أرقى من أخته كثيرا، وكانت زوجته أصغر من مسز بنت سنين، وكانت امرأة بشوشة ذكية وأنيقة في ملبسها محببة إلى بنات أخت زوجها.

وكان أول ما عملته مسز جاردنر بعد مجيئها أن قدمت هداياها، وأن أخذت تصف أحدث الأزياء، فلما فرغت من هذا أضحت أقل مما كانت نشاط، وأصبح عيلها إِن تمثل دور المستمع. وكان ما تزيد مسز بنت أن تتحدث عنه من المتاعب، وما تريد أن تبثه من الشكوى كثيراً. لقد كانت ابنتان من بناتها على وشك أن تتزوجا، ولكنها قالت إن هذا لا يهم كثيراً.

ثم أضافت إلى ذلك قولها: «إني لا ألوم جين، ما لزي! آه! يا أختي! إني ليصعب علي أن أفكر في أنها لولا خبثها لكانت الآن زوجة مستر كلنز! لقد عرض عليها الزواج في هذه الحجرة نفسها، ولكنها رفضته. وكانت نتيجة ذلك أن السيدة لوكاس ستتزوج بنتا من بناتها قبلي. إن هذه الآلام التي تسببها لي أسرتي لتؤثر أسوأ الأثر في أعصابي. لكن في مجيئك إلينا في هذا الوقت أعظم السلوى، وإني ليسرني أعظم السرور أن استمع إلى ما تقولينه عن الأكمام الطويلة».

ولما اخلت جين: «مسكينة جين! إني ليؤلمني ما أصابها، وإن طباعها قد لا تمكنها من التغلب على هذه الحال إلى وقت ما. ولكن هل تظنين أنه يمكن إقناعها أن تعود معنا إلى المدينة، فقد يكون في تغيير المناظر ما يفيدها؟».

وسرت إلزبث غاية السرور من هذا الاقتراح.

وواصلت مسز جاردنر حديثها قائلة: «أرجو ألا يؤثر فيها أي تفكير في هذا الشباب. فنحن نسكن في حي من المدينة بعيد عن الحي الذي يسكن فيه، ونختلط بطبقة من الناس غير الذين يختلط هو بهم، ولهذا لا يحتمل أن تقابله إلا إذا جاء هو ليراها عن قصد».

وقبلت الآنسة بنت دعوة وزوجة خالها مغتبطة. ورحلت أسرة جاردنر عن لنجبورن بعد أن أقامت فيها أسبوعا، وقبل أن تغادر مسز جاردنر البيت أسدت إلى إلزبث بعض النصح لأن سلوكها أثار في نفسها بعض الظن بأنها تشعر بشيء من الحب لمستر وكهام.

«وأريد جادة أن تكوني على حذر. نعم إني ليس لدي ما آخذه عليه، فهو شاب متع إلى أقصى حد، ولو كان له من المال ما يجب أن يكون له، لاعتقدت أنك لا تجدين خيراً منه. أما والحالة كما هي– فإن لك عقلا، ونحن كلنا ننتظر منك أن تنتفعي به، فلا تخيبي رجاء أبيك فيك».

الفصل الثاني والعشرون

كان شهرا يناير وفبراير شهرين خاليين من أسباب المتعة. فقد أحزن إلزبث أن تفارق جين، وتزوجت شالورت، ورحلت إلى هنزفورد، ولم تجد البنات ما يقضين فيه الوقت غير السير إلى مريتن في الأقذار تارة وفي البرد تارة أخرى.

وكتبت إلزبث رسائل كثيرة، وتلقت مثلها، وظلت تكاتب شارلوت بانتظام كما كانت تكاتبها من قبل، وإن لم يكن في رسائلهما من الصراحة ما كان فيها في الأيام السابقة. وكتبت جين من لندن تقول إنها لم تر الآنسة بنجلي ولم تتلقى رسالة منها. على أنها قد فسرت هذا بأن افترضت أن رسالتها الأخيرة التي بعثت بها صديقتها من لنجبورن قد فقدت لسبب ما.

وأضافت إلى ذلك قولها: «إن زوجة خالي ستذهب غدا إلى ذلك الحي من أحياء المدينة، وسأنتهز هذه الفرصة لأزوركارولين».

وكتبت مرة أخرى بعد الزيارة تقول: «لست أن كارولين كانت منشرحة الصدر، ولكنها سرت لرؤيتي، ولامتني على لم أخبرها بمجيئي إلى لندن؛ وإذن فقد كنت صادقة في ظني أن رسالتي لم تصل إليها قط. وسألتها عن أخيها بطبيعة الحال، فعلمت أن عمله كثير إلى حد قلما يمكن

الأسرة أن تراه. ولم تطل زيارتي كثيرا لأن كارولين ومسز هرست كانتا تهمان بالخروج».

وهزت إلزبث رأسها حين قرأت هذه الرسالة.

وانقضت أربعة أسابيع لم تر جين في خلالها مستر بنجلي، ولم تكن ليفوتها بعدئذ إهمال الآنسة بنجلي لها. ثم جاءت الأنسة بنجلي أخيراً، ولكن قصر المدة التي أقامتها، وما طرأ على أخلاقها من تبدل– وهو أهم في نظر جين من قصر الزيارة– لم يسمحا لجين بأن تظل على خداعها لنفسها.

فلم يكن يخفي على جين أن الآنسة بنجلي لم تكن مسرورة من مجيئها، وقد اعتذرت اعتذاراً شكلياً فاتراً عن أنها لم تزرها قبل ذلك الوقت، ولكنها لم تقل كلمة واحدة عن رغبتها في زيارتها مرة أخرى، وقد تبدلت أحوالها من جميع الوجوه تبدلا جعل جين تصمم على أن تقطع صلتها بها.

وتبت إلزبث إلى مسز جاردنر تحدثها عن شؤونها، فأنبأتها أن وكهام لم يعد يوجه التفاته إليها، وأنه يعجب الآن بالآنسة ميري كنج، وهي فتاة زرثت فجأة عشرة آلاف جنية. على أن قلب إلزبث لم يكن قد تأثر بحب وكهام إلا قليلا، وأرضت كبريائها باعتقادها أنها لو أوتيت من الثروة ما يسمح لها بزواجه لما اختار غيرها هي.

الفصل الثالث والعشرون

واتفق أن تذهب إلزبث إلى هنزفورد بدعوة من شارلوت في شهر مارس، ولم تكن قد فكرت تفكيراً جدياً في الذهاب إلى هناك في أول الأمر، ولكنها وجدت أن صديقتها كانت تهتم بهذه الزيارة. وكان غياب شارلوت عنها قد زاد شوقها إلى رؤيتها مرة أخرى، وقلل اشمئزازها من مستر كلنز. هذا إلى أن الرحلة ستمكنها من إلقاء نظرة على جين لأنها ستقضي ليلة في لندن.

واتفق أن يصحبها في الزيارة سير وليم لوكاس وابنته الثانية ماريه. ولم يكن طول الرحلة أكثر من أربعة وعشرين ميلا، وقد شرعوا فيها مبكرين حتى يكونوا في لندن وقت الظهر. ولما اقتربوا بالعربة من باب مستر جاردنر، وكانت جين تطل من نافذة حجرة الاستقبال تترقب وصولهم، ولما دخلوا الردهة كانت هناك لتحيه. ونظرت إلزبث إلى وجهها نظرة فاحصة، وسرها أن تراه على ما كان قبل من صحة ورونق. وكان على الدرج طائفة من صغار الأولاد والبنات، لم تسمح لهم لهفتهم على رؤية ابنة عمتهم بأن ينتظروا في حجرة الاستقبال، ولكن حياءهم منها الناشيء من عدم رؤيتهم إياها سنة كاملة قد منعهم أن ينزلوا على الدرج أكثر مما نزلوا على أحسن حال من البهجة والغبطة، فانقضى عصره في شراء بعض السلع، وانقضى المساء في أحد المسارح.

واستطاعت إلزبث بعدئذ أن تجلس إلى جوار زوجة خالها. وكان أول موضوع للحديث الذي دار بينهما هو موضوع أختها؛ وكان ألمها أشد من دهشتها حين سمعت أن جين وإن حاولت أن تبدو باشة مرحة، كانت في بعض الأوقات تبدو جد حزينة، على أنه كان من المعقول أن أوقات الحزن هذه لن تدوم طويلاً.

وقبل أن يفترقوا بعد نهاية المسرحية تلقت إلزبث من خالها وزوجته نبأ لم تكن تنتظره سرت له غاية السرور، وهو دعوتها إلى مرافقتهما في رحلة تفكران في القيام بها في فصل الصيف.

وقالت مسز جاردنر: «إننا لم نقرر بعد إلى أية مكان نصل في هذه الرحلة، ولكنا قد نصل إلى إقليم البحيرات».

ولم يكن ثمة فكرة أحب إلى إلزبث من هذه الفكرة، فقبلت الدعوة من فورها شاكرة.

الفصل الرابع والعشرون

كان كل شيء في رحلة اليوم الثاني جديداً ممتعاً في نظر إلزبث، فلما أن خرجوا من الطريق الكبير العام إلى الطريق الصغير المؤدي إلى هنزفورد، كانت أعينهم جميعا تتطلع إلى دار القس. فلمت=ا لاحت لهم أخيراً رأوا مستر كلنز وشارلوت في انتظارهم عند الباب، ووقفت العربة عند الباب الصغير بين تحيات الجماعة وابتساماتها، وحيت مسز كلنز صديقتها وهي مبتهجة أعظم ابتهاج، وكان سرور إلزبث من مجيئها يزداد في كل لحظة حين وجدت أنها قد استقبلت هذا الاستقبال الودي.

ولم يكن يسعها حين أخذها مستر كلنز ليريها بيته وأثاثه، ودلائل الإعجاب بادية عليه، إلا أن تظن أنه يريد أن يشعرها بما خسرته حين أبت أن تتزوجه. على ندمها على فعلتها، بل أخذت بدلا من هذا تنظر إلى صديقتها وهي تعجب كيف يبدو عليها مظاهر الاغتباط في صحبة زوج كزوجها. ودعاهم صاحب الدار بعد أن فرغوا من إعجابهم بالبيت لأن يتنزهوا في الحديقة، وكان العمل فيها من أكبر ملذاته، وابتسمت إلزبث في سريرتها حين سمعت شارلوت تتحدث عما تؤدي إليه هذه الرياضة من صحة في الجسم، وتقول إنها تشجعها أعظم ما تستطيع من تشجيع.

وكان البيت على صغره أنيقا مريحا، وكانوا إذا نسوا مستر كلنز يجدون في كل جزء من أجزائه في واقع الأمر أعظم مظاهر الراحة. وظنت

إلزبث حين أبصرت ما بيده على شارلوت من غبطة أن مستر كلنز لابد أن يُنسي في أكثر الأوقات.

وذكر في وقت الطعام أن السيدة كترين لا تزال في الريف، وأخذ مستر كلنز يفصل القول في وصف عنايتها به وبشارلوت وأظهر أنه يتوقع أن تلحظ إلزبث بعنايتها.

وأنقضت معظم السهرة في الحديث عن الأخبار التي جاءتهم من بلدهم، ولما فرغوا منها آوت إلزبث وهي هادئة إلى حجرتها، ولم يسعها إلا أن تفكر في حظ شارلوت من القناعة، وأن تتفهم حذقها في القيادة وسيطرتها على نفسها حتى أمكنها أن تتحمل زوجها، وكان لابد لها أن تقر بأنها قد أحسنت في ذلك أيما إحسان.

وبينا كانت إلزبث في حجرتها حوالي الظهر تستعد لنزهة سيرا على الأقدام، إذ سمعت جلبة مفاجئة في الطابق الأسفل دلت على أن البيت كله في هرج ومرج، فأصغت إلى ذلك قليلا، ثم سمعت وقع أقدام إنسان يصعد الدرج في سرعة عنيفة ويناديها بصوت عال، ففتحت الباب وأبصرت مارية وقد جاءت تدعوها إلى النزول في تلك اللحظة.

وحاولت إلزبث عبثا أن تعرف جلية الخبر، لأن مارية لم تشأ أن تخبرها بشيء غير دعوتها إلى النزول، فأسرعت إلى حجرة الطعام لتعرف حقيقة هذا الأمر العجيب، فأبصرت سيدتين راكبتين في عربة واقفة عند باب الحديقة.

وصاحت إلزبث قائلة: «وهل هذا كل شيء؟ إن أقل ما كنت أتوقعه أن تكون الخنازير قد انطلقت في الحديقة، وهأنذا لا أرى إلا السيدة كترين وابنتها!».

وقالت مارية وقد ذهلت من هذا الخطأ: «لا يا عزيزتي! ليست هي السيدة كترين، فإن السيدة المسنة هي مسز جنكنسن عشيرتها. أما الأخرى فهي الآنسة ده بورج. انظري إليها فهل كان أحد يظن أنها نحيلة ضئيلة الجسم إلى هذا الحد!».

وقالت إلزبث وقد جالت بخاطرها أفكار أخرى: «إني أحب مظهرها؛ إنها تبدو ضعيفة غاضبة؛ نعم إنها توائمه كل المواءمة، إنها تصلح لأن تكون له زوجة طيبة».

الفصل الخامس والعشرون

وكان الغرض من زيارة السيدتين هو دعوة الجماعة كلها إلى تناول العشاء في روزنجس حيث تسكن السيدة كترين. وكان الظفر الذي ناله مستر كلنز بهذه الدعوة ظفراً كاملاً ليس ينقصه شيء؛ وكادت الدعوة أن تكون وحدها موضوع الحديث طوال يوم الزيارة وصباح اليوم الثاني. وأخذ مستر كلنز يعني بإرشاد السيدات إلى ما ينتظرنه هناك حتى لا تُدهشنه كل الدهشة مناظر الحجرات وكثرة الخدم وفخامة الطعام. وقد جاء إلى أبواب حجرهن وهن يلبس ثيابهن ليحثن على الإسراع، لأن السيدة كترين تكره كل الكره أن يتأخر موعد عشائها. وكان هذا الوصف وأمثاله يخيف مارية لوكاس كثيراً لأنها لم تتعود غشيان المجتمعات، أما إلزبث فلم تخنها شجاعتها، لأنها لم تسمع عن السيدة كترين شيئاً يبعث في نفسها الإجلال لحذق تشتهر به خارق للعادة أو فضيلة لها عجيبة. أما العظمة التي منشؤها المال أو المنزلة فقد ظنت أنها تستطيع أن تنظر إليها في غير وجل.

ورأت إلزبث نفسها جديرة كل الجدارة بأن تقدم إلى السيدة العظيمة؛ وكان في وسعها أن تشاهد السيدات الثلاث اللاتي كن أمامها وهي هادئة. وكانت السيدة كترين امرأة طويلة القامة ضخمة الجسم واضحة معارف الوجه. ولم تكن تبدو عليها مظاهر الود والألفة، ولم تكن طريقة استقبالها لضيوفها مما يحملهم على أن ينسوا أنهم أقل منها شأناً. وكانت تنطق ما تقوله بلهجة السيدة الآمرة مظهرة بذلك عظم شأنها.

وبدت الآنسة ده بورج شاحبة اللون ضعيفة الجسم، ولم تتحدث إلا لمسز جنكنسن بصوت خافت. ولم يكن لهذه السيدة من شغل يشغلها إلا الإصغاء لما تقول.

وكان العشاء ظريفا إلى أقصى حد، وكان كل مافيه محققا ما وعد به مستر كلنز، وأخذ هو يثني على كل شيء بصوت عال، وكان سير وليم لا ينفك يردد صدى ثنائه. وأخذت السيدة كترين تبتسم ابتسامات المن والعظمة، وبدت أنها راضية عن إعجاب الضيوف البالغ أقصى حد.

ولما عادت السيدات إلى حجرة الاستقبال لم يكن لديهمن ما يفعلنه إلا أن يصغين إلى حديث السيدة كترين، وانطلقت هذه تتحدث للا انقطاع، وتبدي آراءها في كل شيء بطريقة حاسمة تدل على أنها لم تتعود قط أن يناقش أحد أحكامها. وأخذت تسأل إلزبث أسئلة كثيرة عن أسرتها وعن عدد أفرادها، وعن تعليمهن وهل يحتمل أن تتزوج إحداهن، وماذا كان اسم أمها قبل أن تتزوج وأحست إلزبث بما في هذه الأسئلة من سوء الأدب، ولكنها أجابت عنها في هدوء، ثم قالت السيدة كترين!

«هل تعرفين العزف والغناء يا آنسة بنت؟».

«قليلا».

«إذن فإنا يسرنا أن نسمعك وقتا ما. إن بياننا من نوع جديد، ولعله أحسن من بيان– وهل تعزف أخواتك وتغنين؟».

«إن إحداهن تعزف وتغني».

«ولِمَ لم يتعلمن كلهن؟ لقد كان من واجبكن جميعاً أن تتعلمنهما وهل تعرفين الرسم؟».

«لا أعرف منه شيئاً».

«ما هذا، ألا تعرفه إحداكن؟».

«ليس منا من تعرفه».

«إن هذا الأمر جد عجيب، ولكني أظن أنكن لم تسنح لكن الفرص. وهل تمت إحدى أخواتك الصغرى تعليمها وسمح لها بالاختلاط بالمجتمع يا آنسة بنت؟».

«نعم كلهن».

«كلهن! الخمس! كلهن مرة واحدة يختلطن؟ إن هذا لشيء جد عجيب! ولست أنت إلا ثانية أخواتك، كم عمرك من فضلك؟».

فأجابتها إلزبث وعلى ثغرها ابتسامة: «إذا كان ثلاثة من أخواتي الأصغر مني قد كبرن فإن سيادتك قلما تنتظرين مني أن أبوح لك بشيء».

وبدت الدهشة العظيمة على السيدة كترين لأنها لم تتلق عن سؤالها جوابا صريحا، وظنت إلزبث أنها هي أول مخلوقة جرؤ على أن يعبث معها هذا العبث.

«إني واثقة من أنك لا يمكن أن تكوني أكثر من عشرين – ومن أجل هذا فلا حاجة لك بأن تخفي سنك».

«ليست سني إحدى وعشرين».

ولما انضم إليهن الرجال أعدت مناضد لعب الورق فجلست السيدة كترين إلى واحدة منها تلعب مع سير وليم ومستر كلنز وزوجته. وجلست إلى الثانية الآنسة ده بورج ومعها مسز جنكنسن والفتاتان وظلت السيدة كترين تتحدث إلى الأخطاء التي يخطئها غيرها من اللاعبات واللاعبين. وشغل ستر كلنز بالموافقة على كل ما تقوله، وشكرها على كل دور يكسبه، واعتذاره إذا ظن أنه قد كسب أكثر مما يجب أن يكسبه من الأدوار. أما من كانوا جالسين إلى المنضدة الأخرى فقلما كانوا ينطقون بكلمة، ووجدت إلزبث إن اللعب سخيف ممل.

الفصل السادس والعشرون

وسرعان ما انقضى الأسبوعان الأولان من إقامة إلزبث في هدوء، تتخللهما نزهات على الأقدام وزيارات متفرقة إلى روزنجس. واقترب عيد الفصح، وكان مقرراً أن ينضم فيه عدد من الزوار إلى الأسرة المقيمة في روزنجس. فقد كانت زيارة مستر دارسي منتظرة في ذلك الوقت؛ ولما جاء كان معه قريب له يدعى الكولونل فتزوليم .

وجاءا إلى بيت القس بعد قدومهما بيوم واحد. كان الكولونل فتزوليم في الثلاثين من عمره، وكان رجلا وسيما، ولكنه كان في هيئته وأخلاقه مثالاً للرجل الكامل المهذب. وظهر مستر دارسى بمظهره المعتاد لم يتحول عنه قط، فكان مؤدبا ولكنه لم يتكلم إلا قليلا. ولم تزد إلزبث على أن حيته بانحناءة ولكنها لم تخاطبه بكلمة.

وبدأ الكولونل فتزوليم حديثه في الحال وبالطلاقة والسهولة اللائقتين بالرجل الحسن التربية. وسأل مستر دارسى إلزبث بعد سكوت طويل عن صحة أسرتها، فأجابته بالطريقة المألوفة، وأضافت إلى جوابها بعد صمت قصير:

«إن أختي الكبرى تقيم في لندن من ثلاثة شهور، فهل اتفق لك أن رأيتها هناك؟».

وخيل إليها أنه قد بدا عليه شيء من الارتباك، وهو يجيبها عن سؤالها بأنه لم يسعده الحظ بلقاء الآنسة بنت.

ومضت بضعة أيام قبل أن تصلهم الدعوة الثانية من روزنجس. وسبب ذلك أن الحاجة لم تكن تجعو إلى وجودهم في ذلك المكان إذا كان فيه زائرون. فلما تلقوا الدعوة وانضموا إلى من كان في حجرة استقبال السيدة كترين استقبلتهم هذه السيدة بأدب، ولكنه لم يكن خافيا أنها ترحب بهم كما كان يرحب بهم وقت أن لم يكن غيرهم من الزوار في الدار.

وبدا على الكولونل فتزوليم أنه مسرور حقا لرؤيتهم، ذلك أن أي شيء كان يخفف من سآمة روزنجس، ورأى صديقة مسز كلنز الجميلة فراقه جمالها، وجلس على جانبها، وأخذ يتحدث إليها حديثاً ممتعاً، لم تمتع إلزبث في هذه الحجرة من قبل بحديث يحتوي نصف ما يحتويه من المتعة. وتحدث الاثنان بمرج استلفت نظر السيدة كترين نفسها. أما مستر دارسى فسرعان ما اتجه بعينيه نحوهما ونظر إليهما مراراً نظرة الدهشة. وأخيراً صاحت السيدة كترين قائلة: «أي شيء تقوله يا فتزوليم؟ ما الذي تتحدث عنه؟ ماذا تقول للأنسة بنت؟».

فأجابها بقوله: «نحن نتحدث عن الموسيقى يا سيدتي».

«عن الموسيقى! إذاً فتحدثا بصوت عال. يجب أن يكون لي نصيب في الحديث إن كنتما تتحدثان عن الموسيقى. إني أظن أنه قلما يوجد في

إنجلترا أناس أوتوا من الذوق الموسيقي الطبيعي ما أوتيت أنا؛ ولو أنني علمت الموسيقى لكنت الآن من أبرع العازفات».

ثم سألته عن قدرة جورجينا أخدت دارسى على العزف، فأخذ يثني على حذقها ثناء عاطرا من كل قلبه.

وواصلت السيدة المبجلة حديثها قائلة: «إن عليها ألا تنقطع عن تدريب نفسها. لقد أخبرت الآنسة بنت عدة مرار أنها لن تحسن العزف حقيقة إلا إذا زادت من تدريبها، ومع أن مسز كلنز لا تملك بيانا فإن في وسعها أن تأتي في كل يوم إلى روزنجس وتعزف على البيان في حجرة مسز جنكنسن، وأنت تعلم أنها لن تضايق أحداً في هذا الجزء من المنزل».

وخجل مستر دارسى من سوء تربية خالته ولم يحر قط جوابا. ولما فرغوا من شرب القهوة ذكر الكولونل فتزوليم إلزبث بأنها قد وعدته من قبل أن تعزف له، فجلست من فورها إلى البيان، وسحب هو معقداً إلى جوارها. واستمعت السيدة كترين إلى نصف أغنية ثم أخذت تتحدث إلى ابن أختها الآخر حتى ابتعد عنها، واتجه نحو البيان، وجلس بحيث يستطيع أن يرى وجه العازفة الجميل. وشاهدت إلزبث ما كان يفعله، فلما أمكنها أن تقف أول وقفة التفتت إليه وهي تبتسم وقالت له:

«إنك تريد أن تخيفني يا مستر دراسى بمجيئك على هذا النحو كله لتستمع إلى. ولكنني لن أنزعج وإن كانت أختك تحسن العزف حقا».

فأجابها بقوله: «لن أقول إنك مخطئة، لأنك لا يمكن أن تظني حقا أني أقصد إزعاجك».

وضحكت إلزبث وقالت للكولونل فتزوليم: «إن قريبك يعلمك ألا تصدق كلمة واحدة مما أقول. إن قوله هذا يغريني على أن أثأر لنفسي».

فقال كولونل فتزوليم: «أرجو أن تسمعيني ماذا تريدين أن تتهميه به».

«ستستمع- ولكن تهيأ لسماع شيء مروع جدا. إن أول مرة رأيته فيها كانت في حفلة رقص- وماذا تظن أنه فعل في هذه الحفلة؟ إنه لم يرقص سوى أربع رقصات، بالرغم من أن الرجال كانوا فيها قلائل، وإني لأعلم أن أكثر من سيدة واحدة كن جالسات في انتظار من يراقصهن».

«لم أكن قد تشرفت في ذلك الوقت بمعرفة أية سيدة في هذه الحفلة من غير الجماعة التي جئت معها».

«هذا صحيح، ولكن أليس في وسع أي إنسان أن يقدم إلى غيره في حجرة رقص؟».

فقال مستر دارسى: «ربما كان حكمي أصح مما كان لو أنني طلبت أن أعرف، ولكني لست أهلا لأن أقدم نفسي لمن لا أعرف».

واتجهت إلزبث إلى الكولونل فتزوليم وخاطبته بقولها: «وهل تسأل قريبك عن سبب هذا؟».

فأجابها بقوله: «إن في وسعي أن أجيبك عن سؤالك؛ إن السبب هو أنه لا يريد أن يشغل نفسه بهذا الأمر».

وقال دارسى: «لا شك في أنني لم أعط الموهبة التي أعطيت بعض الناس، موهبة التحدث في يسر مع من لم أرهم قط من قبل».

وفي هذه اللحظة قطعت عليهم السيدة كترين الحديث، وقد جاءت لتعرف فيم كانوا يتحدثون. وعادت إلزبث إلى العزف من فورها، واقتربت السيدة كترين، واستمعت إلى عزفها بضع دقائق، ثم قالت لمستر دارسى:

«إنها تحسن تحريك أصابعها، وإن لم يكن ذوقها مساويا لذوق آن؟ ولو آن أمكنتها من تعلم العزف لكانت عازفة مطربة».

ونظرت إلزبث إلى دارسى لتعرف إلى أي حد يوافق على قول خالته، ولكنها لم يكن في وسعها أن تتبين، لا في هذا الوقت ولا في غيره من الأوقات، شيئاً من علامات الحب. وظلت السيدة كترين تبدي ملاحظاتها عن عزف إلزبث حتى جاءت عربة هذه السيدة الجليلة لتقلهم جميعاً إلى المنزل.

الفصل السابع والعشرون

وبينا كانت إلزبث جالسة بمفردها في صباح اليوم الثاني تكتب إلى جين بعد أن خرج مستر كلنز ومارية إلى عمل في القرية، إذ فوجئت بقرع على الباب، وكان هذا إنذانا مؤكداً بقدوم زائر. وما كان أشد دهشتها حين فتحت الباب ودخل إلى الحجرة مستر دارسى، مستر دارسى وحده.

وظهرت عليه هو أيضاً: الدهشة حين وجدها بمفردها، واعتذر لها عن إقلاق راحتها بأن أفهمها أنه كان يعرف أن السيدات جميعهن كن في المنزل.

ثم جلسا، وبعد أن فرغت من أسئلتها عمن في روزنجس لاح لها خطر انقطاع الحديث بينهما انقطاعاً تاماً. وكان حتما مقضيا عليها إذن أن تتحدث في شيء ما؛ وتاقت نفسها إلى أن تعرف ما يقوله في موضوع ارتحالهم السريع فقالت له:

«ما أسرع ما غادرتم كلكم نذرفيلد فجأة في شهر نوفمبر الماضي يا مستر دارسى! ولعل مستر بنجلي وأختيه كانوا بخير حين غادرت لندن؟»

«لقد كانوا على أحسن حال؛ وشكراً لك سؤالك عنهم». ثم واصلت حديثها بعد صمت قليل:

«لقد فهمت أن مستر بنجلي لا يفكر كثيراً في العودة إلى نذرفيلد في يوم من الأيام».

«أكبر الظن أنه لن يقضي هناك إلا قليلا من وقته في المستقبل».

«إذا لم يكن في عزمه أن يقضي إلا قليلا من الوقت في نذرفيلد فإن من الخير لهذه الجهة أن يخلي البيت إخلاء تاماً. ولعلنا في هذه الحال نجد أسرة أخرى تستقر فيه».

وقال دارسي: «ولست أدهش إن باعه إذا عرض عليه ثمن ملائم له».

وصمتت إلزبث فما أجارت جواباً، فقد كانت تخشى أن تتحدث أكثر مما تحدثت عنه صديقه، ولما لم يكن لديها شيء غير هذا تقوله، فقد اعتزمت أن تترك له عناء إيجاد موضوع صالح للحديث».

وفهم هو ما تريد، وبدأ حديثه من فوره: «يبدو أن مستر كلنز كان موفقا في اختيار زوجة له، وما من شك في أنها قد سرها أن تستقر على بعد قليل من أسرتها وأصدقائها».

«أتقول على بعد قليل؟ إن المسافة تقرب من خمسين ميلا، ولم يكن يسعني قط أن أقول إن مسز كلنز تقيم بالقرب من أسرتها».

«إن هذا دليل على تعلقك أن بموطنك، ويخيل إلي أن أي مكان غير مجاور للنجبورن يبدو لك بعيدا».

ثم قرب مقعده منها وقال لها:

«لا يمكن أن يكون من حقك أن تتعلقي هذا التعلق الشديد بهذه الجهة، ولا بد أنك لم تقيمي على الدوام في لنجبورن».

ونظرت إليه إلزبث في دهشة، وشعر الرجل بتبدل في شعورها فابتعد عنها بكرسيه، وأخذ صحيفة من فوق المنضدة ونظر إلى إلزبث من فوقها، وقال بصوت أهدأ من ذي قبل:

«أأنت مسرورة من كنت؟».

وتلى ذلك حديث قصير عن الريف، سرعان ما قطعه دخول شارلوت وأختها، وقد عادتا تواًً من نزهتهما.

ولم يكد دارسى يخرج من الحجرة حتى قالت شارلوت: «ماذا عسي أن يكون معنى هذا؟ ما من شك يا عزيزتي إليزا في أنه قد أحبك، وإلا لما جاء لزيارتنا بهذه الطريقة الخالية من الكلفة».

فلما حدثتها إلزبث عن صمته بدا أن ذلك لم يكن أمرا كبير الاحتمال، ولم يكن يسعهما آخر الأمر إلا أن تفترضا أن الباعث على زيارته لم يكن إلا أنه لم يجد ما يشغله في هذا الوقت من السنة. ولما كان

الرجال لا يستطيعون أن يظلوا على الدوام في داخل البيوت، ولما كان بيت القسيس قريبا منهما، فقد أغرى هذا القرب تينك الفتاتين من هذا الوقت على أت تسيرا مشياً على أقدامهما في كل يوم تقريبا منفردين تارة ومجتمعين تارة أخرى. واتضح أن الكولونل فتزوليم كان يأتي هناك لأنه يسره أن يجتمع بهما، أما مستر دارسى فلم يكن في وسعه أن يأتي لهذا السبب عينه، فقد كان كثيراً ما يجلس هناك عشر دقائق كاملة دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة. ولم تدر مسز كلنز كيف تفسر هذا الصمت، فقد كان هو من غير شك يطيل النظر إلى إلزبث، وقد أشارت إلى صديقتها مرة أو مرتين بأنه لا يبعد أن يكون مهتما بها، ولكن إلزبث كانت على الدوام تضحك من الفكرة.

الفصل الثامن والعشرون

والتقت إلزبث بمستر دارسى فجأة أكثر من مرة وهي تتنزه على مهل كل يوم في بستان روزنجس، حيث كان يسمح لها هي وغيرها من السيدات أن يتنزهن. وأرادت أن تتحاشى تكرار هذا اللقاء فحرصت على أن تخبره في أول مرة أن البستان من الأماكن التي يسرها أن تترد عليها. فلما أن حدث هذا اللقاء مرة أخرى كان حدوثه غاية في العجب! لكنه مع ذلك حدث مرة ثانية بل وثالثة. ورأى هو فعلا أن لابد له من أن يغير اتجاهه ويسير معها. ولم يتحدث إليها في هذا اللقاء كثيراً، ولم تر هي أن تشغل نفسها بكثرة الحديث معه أو الإصغاء إليه.

وكانت هي تتمشى في البستان في أحد الأيام مشغولة بقراءة آخر اخطاب ورد إليها من جين، وكانت تقرؤه للمرة الثاني. وبينا هي كذلك إذ رفعت عينيها عن الخطاب فوجدت الكولونل فتزوليم مقبلا نحوها بدل أن تجد مستر دارسى يفاجئها بقائها مرة أخرى؛ فلما التقيا سارا إلى بيت القسيس معاً.

وسألته: «أتغادر كنت بالتأكيد يوم الثلاثاء؟».

«نعم إلا إذا أجل ذلك دارسى مرة أخرى، فهو ينظم عملنا كما يهوى، وأنا منضم إليه في الوصاية على الآنسة دارسى».

«أحق ذلك؟ هل لي من فضلك هل يكلفك عملك هذا عناء كبيراً؟ إن من كن في سنها من الفتيات يصعب أحياناً الإشراف عليهمن».

وشاهدت وهي تحدثه أنه ينظر إليها نظرة فاحصة، وأبقنت من حالته أنها قد اقتربت بطريقة ما من الحقيقة، ثم أجابت من فورها: «لا حاجة لك بأن تنزعج. إني لم أسمع قط شيئاً يسيء إليها، وهي محببة جداً إلى بعض من أعرف من السيدات، إلى مسز هرست وإلى الآنسة بنجلي، وأظنك تعرفهما».

«إن لي بهما معرفة قليلة، فأخوهما صديق صدوق لدارسى».

وقالت إلزبث بسرعة: «نعم؛ إن مستر دارسى يحنو كثيراً على مستر بنجلي ويعني به أعظم عناية».

«يعني به! نعم، أعتقد حقاً أن دارسى يعني به. وفي وسعي أن أستنتج من بعض ما قاله لي الأسباب التي تحملني على الظن بأن بنجلي مدين له بالشيء الكثير».

«ماذا تقصد بهذا القول؟».

«إنها من المسائل التي لا يرغب دارسى بطبيعة الحال أن يعرفها الناس بصفة عامة، لأنها إن وصل علمها إلى أسرة الفتاة، كان هذا أمراً غير مستحب».

«ثق أنني لن أذكره».

«لم يقل لي شيئاً غير هذا: إنه يهنيء نفسه بأنه من وقت قريب قد أنقذ صديقاً له من متاعب زواج هم أن يقدم عيله من غير تبصر، ولكنه لم يذكر لي أسماء أو تفاصيل».

«وهل أفضى إليك مستر دارسى بالأسباب التي حملته على هذا التدخل؟».

«لقد فهمت أن لديه اعتراضات قوية على الزواج بهذه السيدة».

ومشت إلزبث وقل

بها مفعم بالغضب، ولم تكن تريد أن تعرف أكثر مما عرفت عن هذا الأمر، ولذلك بدلت موضوع الحديث بسرعة، فأخذت تتحدث عن مسائل أخرى حتى اقتربا من دار القس. وهناك أغلقت حجرتها على نفسها ساعة أن غادر الزائر الدار، وكان في وسعها أن تفكر في كل ما سمعته دون أن يقطع عليها أحد هذا التفكير. إنها لم تكن تشك في يوم من الأيام أن مستر دارسى كانت له يد في التفرقة بين مستر بنجلي وجين؛ ولكنها كانت على الدوام تلقي معظم التبعة في هذا الفراق على الآنسة بنجلي. بيد أنه كان هو السبب – كان كبرياؤه هو السبب– في كل ما قاسته جين. لقد أضاع على هذا القلب الذي هو أكرم القلوب في العالم وأكثرها حباً كل أمل في السعادة.

«إن لديه اعتراضات قوية على الزواج بهذه السيدة». هذه هي ألفاظ الكولونل فتزوليم، وهذه الاعتراضات هي أن لها خالا محامياً وآخر من رجال الأعمال في لندن.

وصاحت قائلة: «أما جين نفسها فلا يمكن أن يكون عليها اعتراض ما، فهي الجمال والطيبة بأكمل معانيهما، وهي في منتهى الذكاء، ذات عقل مثقف وطباع جذابة. وليس ثمة شيء يمكن أن يؤخذ على والدي، فإن له من المواهب مالا يستطيع المستر دارسى أن يزدريه. إلا أنها لما أخذت تفكر في أمها ضعفت ثقتها بأسرتها بعض الشيء».

وكان من أثر انفعالها ودموعها أن أصابها الصداع، وزاد صداعها شدة قرب المساء حتى منعها هو وعدم رغبتها في رؤية مستر دارسى أن تصحب أقاربها إلى روزنجس حيث دعوا لتناول الشاي.

ورأت مسز كلنز أنها متوعكة حقا، فلم تلح عليها بالذهاب، وحاولت بقدر ما تستطيع أن تمنع زوجها أن يلح عليها، ولكن مستر كلنز لم يستطع أن يخفي خوفه من استياء السيدة كترين من بقاء إلزبث في البيت.

الفصل التاسع والعشرون

ولما غادرت الأسرة الدار رأت إلزبث أن تشغل نفسها بفحص جميع الرسائل التي كتبتها إليها جين مذ وصلت إلى كنت، وكأنما أرادت أن تزيد غضبها على مستر دارسى حدة من حدته بأكثر ما تستطيع. ولم يكن في هذه الرسائل شكوى حقيقية، ولكنها وجدت أن كل واحدة منها، وأن كل سطر من سطورها تقريبا، يعوزه ذلك المرح الذي كان أسلوبها يمتاز به عادة. وزاد من شعور إلزبث بآلام أختها تبجح مستر دارسى المخجل بما استطاعت أن يسببه لها من آلام.

وفي هذه اللحظة تنبهت فجاة على رنين جرس الباب؛ وما كان أشد دهشتها حين رأت مستر دارسى يدخل حجرتها ويسألها من فوره عن صحتها بلهجة سريعة. وردت عليه بأدب فاتر، وجلس بضع دقائق، ثم نهض وأخذ يمشي في الحجرة. ودهشت إلزبث من هذا ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة، وبعد صمت دام عدة دقائق أقبل عليها وهو مضطرب، وبدأ حديثه بقوله:

«لقد حاولت عبثاً؛ إن هذا لا يكن أن يكون؛ إن عواطفي لا يمكن التغلب عليها؛ يجب أن تسمحي لي بأن أفضي إليك بعظيم إعجابي بك وحي إياك».

وكانت دهشة إلزبث أعظم من أن لتعبر عنها الألفاظ، فحدقت فيه بناظريها، وامتقع وجهها، وارتابت فيما سمعت، وصمتت. وعد ذلك منها تشجيعا كافيا له فأتبع حديثه السابق على الفور بالإفضاء إليها بكل ما يشعر به نحوها، وأحسن التعبير عن قصده، ولكن كان ثمة عواطف غير عواطف القلب يجب التعبير عنها منفصلة؛ ولم تكن ألفاظه التي عبر بها عن كبريائه بأفصح من التي عبر بها عن عواطفه. لقد عبر لها عن شعوره بانحطاط منزلتها، وبأن زواجه بها ينزل من قدره، وأكد ذلك بحماسة يتعذر معها أن يوفق في خطبته.

ولم يكن في وسعها رغم كرهها المتأصل في نفسها له أن تدرك ما في حب هذا الرجل إياها من تقدير عظيم لها؛ ومع أن ذلك لم يثنها عن قصدها لحظة واحدة فإنها قد أحزنها في باديء الأمر ما سيصيبه من أل، حتى أثارها إحساسها بما في عباراته من إهانة لها، فلم يترك لها غضبها أية رأفة به. على أنها حاولت أن تتملك شعورها، وأن ترد عليه رداً هادئاً حين يفرغ من إقواله. وختم حديثه بقوله أنه يرجو أن تجزيه الآن بقبول زواجه بها. ولم يكن يصعب عليها أن تدرك، وهو يقول هذا٦١، ظانه لا يشك في أنه سيتلقي منها الجواب الذي يحبه؛ وكل ما كان لهذا الظرف من أثر أنه زاد في غضبها، فلما أتم حديثه أحمرت وجنتاها وقالت له:

«»لو أنني كان في مقدوري أن أسعر بأن لك عليّ يد لشكرتها لك الآن– إني لم أرغب قط في ثنائك عليَّ، وما من شك في أنك قد نطقت بهذا الثناء وأنت كاره أشد الكره، وإن الأسباب التي تقزل لي إنها طالما

منعتك أن تعبر لي عن عواطفك لا يصعب عليها أن تتغلب على هذه العواطف بعد هذا الإيضاح».

وأحدقت عينا مستر دارسى في وجهها، غ وبدا وكأنه قد تملكه من الغضب بقدر ما تملكه من الدهشة، وامتقع وجهه، وظهر اضطرابه على كل جارحة من جوارحه، ثم قال لها آخر الأمر بصوت أرغم نفسه على أن يهدئه:

«أهذا كل ما يشرفني أن أنتظره من جواب؟ وقد يكون لي أن أطلب أن تخبريني عن أسباب رفضك إياي على هذا النحو الذي لم تحاولي فيه شيئاً من المجاملة».

وأجابته بقولها: «وقد يكون لي أنا أيضاً أن أسألك لم اخترت أن تخبرني بأنك تحبني رغم إرادتك، وأن تقصد أن تهينني قصداً جليا لا خفاء فيه؟ ألم يكن في هذا بعض العذر عن سوء الأدب، إذا كنت في ردي عليك غير مؤدبة؟ على أن لديّ أسباباً أخرى. هل تظن أن ثمة أعتباراً أيا كان شأنه يغريني بأن أقبل الرجل الذي كان هو السبب في القضاء على سعادة أخت لي، أحبها حباً لا يفوقه حب سواه، ولربما كان هذا القضاء قضاء أبدياً؟».

وما أن نطقت بهذه الألفاظ حتى امتقع وجه مستر دارسى، ولكنه استمع إليها وهي تواصل حديثها دون أن يقاطعها:

«لا شيء مطلقا يمكن أن يكفر عن هذا العمل غير الكريم الذي عملته هناك؛ إنك لا يسعك أن تنكر أنك كنت السبب الأكبر، إن لم تكن السبب الوحيد، ف التفرقة بين الأثنين».

ثم سكتت ورأت أنه يصغي إليها وهيئته تدل على أنه لم يخالجه قط شعور بالندم على ما فعل.

فأعادت عليه «هل تنكر أنك فعلت هذا؟».

فأجابها بهدوء: «لست أرغب في أن نكر أني فعلت كل ما أستط؟؟؟ بين صديقي وأختك، أو أني مغتبط بما وفقت إليه من نجاح. ولقد كنت أكثر شفقة عليه مني على نفسي».

ولم يظهر على إلزبث أنها لاحظت هذه الإشارة إشارة الأدب والمجاملة، ولكنها لم يفتها مغزاها، ولم يهدي هذا المغزي من شعورها.

وواصلت حديثها قائلة: «وليست هذه هي المسألة الوحيدة التي أكرهك من أجلها، فقد تكشفت لي أخلاقك قبل ذلك بزمن بعيد في القصة التي سمعتها من مستر وكهام من شهور كثيرة».

وقال لها دارسى بصوت أكثر اضطرابا، وبوجه أكثر احمراراً من ذي قبل: «إنك تهتمين اهتماماً كبيراً بشئون هذا السيد».

«ومنذا الذي يعرف آلامه، ولا تضطره هذا الآلام إلى الاهتمام بشأنه؟».

وأعاد دارسى بازدراء قولها: «آلامه، ثم أضاف إلى ذلك: «نعم، لقد كانت آلامه شديدة حقا».

وصاحت إلزبث بحدة: «وكانت من صنعك، لقد أوصلته أنت إلى حالة الفقر التي هو عليها الآن».

وصاح دارسى وهو ينتقل بخطاً سريعة في الحجرة: «وهذا هو رأيك فيّ. وإني أشكر لك شرحك الوافي لهذا الرأي». ثم وقف والتفت إليها وأضاف إلى قوله السابق: «ولكن لعل هذه الإساءات كانت تنسي، لو لم يؤلم كبرياءك اعترافي الصريح بالأسباب التي حملتني على ترددي الطويل في خطبتك. ولست أخجل من العواطف التي أفضيت بها إليك، فقد كانت عواطف طبيعية وعادلة. وهل كنت تنتظرين مني أن أغتبط بانحطاط منزلة أسرتك؟».

وأحست إلزبث بأن غضبها يزداد في كل لحظة، ولكنها مع ذلك حاولت أن تتكلم بهدوء وقالت:

«لم يكن في وسعك أن تعرض عليّ زواجك بي بوسيلة تغريني بقبول هذا العرض».

وظلت دهشته بعد هذا القول واضحة كما كانت. ثم واصلت حديثها قائلة:

«لقد انطبع في نفسي من باديء الأمر اعتقاد قوي بكبريائك وأنانيتك، ولم يكد يمضي شهر واحد على تعارفنا حتى أحسست بأنك آخر رجل في العالم يستطيع أحد أن يقنعني بزواجه».

«حسبك ما قلته يا سيدتي، وأرجو المعذرة عما شغلته من وقتك، وقبول أطيب تمنياتي لك بالصحة والهناءة».

قال هذه العبارات ثم بادر إلى الخروج من الحجرة.

وكان ما استولى على عقل إلزبث من الاضطراب قد بلغ غايته وسبب لها شديد الألم، واستولى عليها ضعف شديد أرغمها على الجلوس والبكاء نصف ساعة. وزادت دهشتها في كل لحظة. أدهشها أن يعرض عليها مستر دارسى الزواج بها، وأدهشها أن يصل حبه إياها حداً يرغب معه في الزواج بها رغم كل الاعتراضات التي حملته على أن يمنع صديقه أن يتزوج بأختها، وهي اعتراضات لا يمكن أن تفقد شيئاً من قوتها في حاله هو أيضاً! وأدهشها كبرياؤه المخجل واعترافه دون حياء بما كان له من يد في أمر جين! وأدهشها أيضاً مسلكه المجرد من الإحساس وقسوته على مستر وكهام.

وظلت تقلب في عقلها هذه الآراء المقلقة حتى وصلت إليها أصوات العائدين من روزنجس فأسرعت إلى حجرتها.

الفصل الثلاثون

واستيقظت إلزبث في صباح الغد وهي تفكر في هذا الموضوع نفسه. ذلك أنها لم يكن في وسعها أن تركز عقلها في موضوع سواه؛ ولذلك اعتزمت عقب الإفطار بزمن قليل أن تخرج إلى النزهة والرياضة. وبينا هي تتجه رأساً إلى طريقها المحبوب تذكرت أن مستر دارسى يأتي إلى ذلك المكان أحيانا، فوقفت لساعتها، واتجهت إلى الطريق الضيق خارج البستان.

وبعد هنيهة لمحت رجلا في داخل البستان؛ وكانت قد غيرت طريقها مبتعدة عنه ولكنها حين سمعت صوتا يناديها اتجهت نحو بابه، وإن كان قد تبين لها أن هذا الصوت هو صوت مستر دارسى. وكان هو أيضا في الوقت عينه قد وصل إلى الباب، فلما تقابلا أخرج خطابا وقال لها في هدوء وكبرياء: «هل تتفضلين عليَّ بقراءة هذا»: ثم انحنى إليها انحناءة صغيرة، وأدار ظهره إليها، ولم يلبث أن اختفى عن ناظريها.

وفضا إلزبث الخطاب وهي مندهشة أعظم دهشة، فأبصرت ورقتين مكتوبتين بخط صغير. وكان الخطاب مؤرخا من روزنجس في الساعة الثامنة صباحا وهذا نصه:«لا تنزعجي يا سيدتي حين تتسلمين هذه الرسالة؛ فقد كتبتها وليس من قصدي أن أولمك أو ان أذل نفسي بالإشارة من غير داع

غلى ما حدث بيننا في الليلة الماضية. ولكن سمعتي تتطلب أن تُكتب هه الرسالة وتُقرأ. وأرجو منك أن تعيريها التفاتك إنصافاً لي! .

«لقد وجهت إليَّ في الليلة الماضية تهمتين مختلفتين، أولاهما أني قد فرقت بين مستر بنجلي وأختك، والثانية أني خيبت آمال مستر وكهام. ومن واجبي الآن أن أشرح لك هذين الأمرين.

«لم يمض عليّ في هرتفوردشير غير قليل من الوقت حتى رأيت أن مستر بنجلي يفضل أختك الكبرى عن كل فتاة في ذلك المكان؛ ولم أعر هذا الأمر عناية جدية لأني كثيراً ما رأيته يحب غيرها من قبل. فلما اجتمعنا في الحفلة الراقصة في نذرفيلد، حيث كان لي شرف مراقصتك، وعلمت لأول مرة، من خبر ألقاه إليّ سير وليم لوكاس بطريق الصدفة، أن الالتفات الذي يوجهه مستر بنجلي إلى أختك قد جعل الناس يتوقعون اقترانه بها. وأخذت من هذه اللحظة أراقب صديقي عن كثب، ورأيت أن حبه للآنسة بنت كان أقوى ما شاهدته من قبل فيه. وراقبت أختك أيضاً، وكان مظهرها وخلقها ينمان عن صراحة ومرح وجاذبية هي التي عهدتها فيها من قبل؛ ولكني لم أر شاهداً ما على عاطفة قويه نحوه. فإذا لم تكوني أنت مخطئة هنا، فلا بد أن أكون أنا المخطيء، وإن معرفتك بأختك التي تفوق معرفتي بها لتجعل الرأي الثاني مرجحا».

«ولم تكن كل اعتراضاتي على زواجهما هي وحدها التي ذكرتها لك في الليلة الماضية حين كنت أشرح موقفي، بل كانت هناك اعتراضات

أخرى. ذل أن مركز أسرة والدتك، وإن كان مركزاً بغيضاً، لا يعد شيئاً مذكورا إذا قيس إلى ما تهره هي نفسعا من سوء التربية، وما تظهره أخواتك الثلاث الصغار، وما يظهر والدك من ذلك في بعض الأحيان. وأرجو المعذرة عن هذا القول فإني ليؤلمني حقا أن أسيء إليك. ولكن الذي يعزيك عن هذا أن تعلمي أن سلوكك أنت وأختك رغم وجودكما في هذا الوسط كان سلوكاً مبرءا من هذه العيوب، وهو سلوك يشر فكما جميعاً.

«وثارت مخاوف أخوات بنجلي بقدر ما ثارت مخاوفي، وأنت تعرفين السبيل التي سلكناها، ولكني لا أظن أن هذه الخطا كانت تكفي لمنع الزواج، لو لم أوكد لبنجلي أن اختك لا تعني به. ولما كان هو رجلا شديد التواضع بطبيعته فقد كان من السهل عليه أن يصدق أنه قد خدع نفسه.

«وليس في وسعي أن ألوم نفسي على أني فعلت هذا الفعل، وليس ثمة إلا نقطة واحدة لأرتاح حين أفكر فيها، تلك هي أني تعمدت خديعته بأن أخفيت عنه أن أختك في لندن.

«أما التهمة الأخرى وهي أني أسأت إلى مستر وكهام فكل ما استطيع أن أدفعها به هو أن أقص عليك القصة كلها. لقد كان مستر وكهام ابن وكيل ضيعتي، وكان أبوه هذا رجلاً جديراً بالاحترام. وقد عنى والدي بتعليم ابنه، وكان يرجو أن يتولى منصباً في الكنيسة، ولهذا أراد أن يرصد له ما يلزمه من المال في هذا المنصب. وكنت أنا شاباً في نفس سنه تقريباً، فأدركت من البداية سوء خلقه، وكان يعني بإخفائه عن والدي.

وقبل أن يتوفى أبي أوصاني بأن أعمل على رقيه، وأن أرتب له معاشاً يقوم بأود أسرته إذا ما انخرط في سلك رجال الدين. ولكن مستر وكهام كتب بعد وفاته بزمن قليل يقول أنه قرر ألا يكون من رجال الدين، وإنه يرغب بدلا من هذا أن يدرس القانون. وطلب إليّ من المال ما يعينه على الوصول إلى غرضه. وأعطيته هذا المال عن رضاً وطيب خاطر، لعلمي أنه لا يصلح لأن يكون قسيساً. وعلى هذا فإنه يكون قد تخلى عن كل حق له في أن يعاني على الدخول في خظيرة الكنيسة.

«ثم خلا منصب قسيس المقاطعة فيما بعد؛ ولما كان قد أهمل دراسة القانون وعاش عيشة البطالة، فقط طالب بهذا المنصب، ولكنني رفضت طلبه.

«وفي الصيف الماضي عاد إلى إقتحام نفسه في وجهي بطريقة آلمتني أشد الألم. ولابد لي هنا أن أفضي إليك بسر من أسرار الأسرة. ذلك أن أختي كانت قد تركت المدرسة في الوقت ذاته. وعهد إلى سيدة في رمزجيت أن تعني بها. وتبين أني كنت مخطئاً في ثقتي بهذه السيدة، فقد سمحت إلى وكهام أن يغازل أختي، واتفقت هذه على أن تفر معه. وذهبت أنا لزيارتها قبل الوقت المتفق عليه لهذا الفرار واستحت جورجينا من نفسها، واعترفت لي بكل شيء. وفي وسعك أن تتصوري ما شعرت به وقتئذ وما عملته.

«وكان أكبر ما يسعى له مستر وكهام من غير شك هو ثروة أختي، وهي ثروة تبلغ ثلاثين ألف جنية، ولني لا يسعني إلا أن أفترض أيضاً أنه كان يرجو بذلك أن ينتقم لنفسه مني.

«ويشهد الكولونل فتزوليم بصدق كل ما قصصته هنا؛ وسأحاول أن أجد فرصة تمكنني من أضع هذا الخطاب بين يديك في الصباح؛ وليس لدي ما أضيفه إلا أن أدعو الله أن يبارك فيك.

فتزوليم دارسى

الفصل الحادي والثلاثون

وجاشت نفس إلزبث بجميع أنواع العواطف وهي تقرأ الرسالة باهتمام كبير. وكان أول ما أحسست به هو الامتعاض منها، ومالت إلى عدم تصديق شيء مما حوته، وصاحت قائلة: «لا بد أن يكون هذا كذباً! إن هذا لا يمكن أن يكون!» ولما أتمت قراءة الرسالة كلها أخفتها من فورها، وقالت إنها تنظر فيها مرة أخرى.

ولكن هذا لم يكن، فلم تكد تنقضي نصف دقيقة حتى فتحت الرسالة من جديد، وقرأت ما فيها من التفاصيل الخاصة بوكهام مرة بعد مرة بمنتهى العناية. إن أحد الرجلين اللذين تتحدث عنهما كان بريئاً من الذنب، وأما الآخر فقد بلغ من النذالة ما يجعله جديراً بما هو أقل من الإزدراء؛ ترى أيهما هذا وأيهما ذاك؟ وحاولت أن تذكر شاهداً واحداً على طيبة وكهام، ولكنها لم تجد. لقد كان يسر من رآه بحسن مظهره وصوته وآدابه، أما أخلاقه الحقة فلم تكن تعرف عنها شيئاً، وقد تأكدت بعض التأكيد من قصة محاولته مع الآتسة دارسى في صباح أمس فقط، وكان ذلك في خلال حديث لها مع الكولونل فتزوليم، وهو الذي طلب إليها أن ترجع إليه لتعرف منه جميع التفاصيل.

وكانت قد تذكر بوضوح تام كل ما دار بينها وبين وكهام من حديث أثناء السهرة الأولى بمنزل مستر فلبس. وكان كثير من عباراته لا يزال عالقاً

بذاكرتها. وأدهشها في هذه اللحظة ما ينطوي عليه إفضاؤه بهذه المعلومات إلى شخص غريب عن الأسرة من عدم الذوق، وعجبت كيف غاب ذلك عنها قبل الآن. ورأت كذلك ما تنطوي عليه الطريقة التي أقحم بها نفسه من سوء التربية، وذكرت أنه كان يفخر بأنه لا يخشى أن يرى مستر دارسي، ولكنه مع ذلك امتنع عن حضور حفلة الرقص التي أقيمت في نذرفيلد في الأسبوع الثاني نفسه، وذكرت كذلك أنه لم يقص قصته على أحد غيرها إلا بعد أن انتقلت أسرة نذرفيلد إلى الريف، فكان بعد انتقالها يقصها بصراحة، مع أنه قد أكد لها من قبل أن إجلاله للأب يمنعه دائماً أن يفضح أمر الابن. وغلبها الخجل الشديد من نفسها، وشعرت بأنها كانت عمياء متحاملة سخيفة.

وقرأت مرة أخرى جزء الرسالة الخاص بجين، ولم يسعها أن تنكر عدالة ما وصف به أختها، وأحست بأن جين وإن كانت عواطفها قوية، لم تفصح عنها إلا قليلا جداً،

ولما وصلت إلى ذلك الجزء الذي ذكرت فيه أسرتها بعبارات الذم المذلة، وإن كانت هذه الأسرة جديرة بها، تملكها شعور من الخجل شديد. ولم يكن ليفوتها أن تشعر بالثناء الذي وجهه إليها وإلى أختها، ولكنه مع ذلك لم يرح بالها؛ ولما فكرت في أن ما أصاب جين من خيبة في آمالها كان في واقع الأمر من صنع أقرب الناس إليها، شعرت بكآبة تفوق ما شعرت به في أي يوم من أيامها الماضية.

وأوشكت الآن أن تحفظ ما في الخطاب عن ظهر قلب. لقد درست كل جملة فيه، وكان شعورها نحو كاتبه يختلف كل الاختلاف بين لحظة ولحظة، فإذا ذكرت أسلوبه الذي خاطبها به امتلأ قلبها غضباً إليها هي، وأصبحت خيبته في عواطفه موضع الأسى. وأثار تعلقه بها شكرها كما أثارت أخلاقه بوجه عام إجلالها إياه، ولكنها لم يكن في مقدورها أن توافق على خطبته، أو تندم على رفضها له، أو تشعر بأقل ميل من جانبها لرؤيته بعد اليوم. وكانت تجد سلوكها الماضي مصدر ألم دائم لها، وتجد في عيوب أسرتها ما يُحزنها ويضرم قلبها، وذلك أنها لم تكن من العيوب التي يمكن علاجها.

فأما أبوها فلم يكن يكلف نفسه في يوم من الأيام عناء السيطرة على حمق أختيها الصغيرتين، بل كان يقنع بالسخرية منهما؛ وأما والدتها فكانت أخلاقها أبعد ما تكون عن الأخلاق الحميدة، ولهذا لم تكن نعرف قط ما في أخلاق بناتها من عيوب، وكثيراً ما انضمت إلزبث إلى جين وحاولتا أن تكبحا ما في طباع كترين وليديا من غباء وعدم فطنة، ولكن كيف السبيل إلى إصلاح شأنهما وهذه أمهما تشجعهما بتهاونها، وهذه كترين الضعيفة النفس، العصبية المزاج، المستسلمة كل الاستسلام لقيادة ليديا، يسوؤها أن تسديا إلها النصح؛ وهذه ليديا العنيدة المهملة لا تكاد تقبل أن تستمع إليهما؟ لقد كانت هاتان الفتاتان جاهلتين، متعطلتين، مغرورتين؛ وما دام في مريتن ضابط فإنهما لا تنفكان تعملان على استلفات نظره، وما دامت مريتن يمكن الوصول إليها من لنجبورن سيرا على الأقدام، فإنهما لا تنقطعان عن الذهاب إليها في كل يوم.

وكان اهتمامها بأمر جين مما يشغل أيضاص بالها، وقد زاد إحساسها بما خسرته هذه الفتاة بعد ذلك الإيضاح الذي استمعت إليه من مستر دارسى، والذي أعاد إليها حسن ظنها ببنجلي.

وليس يصعب على الإنسان أن يعتقد أن روح إلزبث المرحة بطبعتها قد تأثرت إلى حسد كاد يجعل من المستحيل عليها أن تظهر ولو قليلا من البهجة؛ وأخذت تترقب وهي راضية قرب انتهاء زيارتها إلى هنزفورد في الأسبوع التالي؛ وكان مستر دارسى قد غادر المكان بعد وقت قليل من إعطائها الخطاب.

وأخيراً حزمت الحقائب واختتمت عبارات الوداع، ولم تكن تعوزها خطبة طويلة من مستر كلنز، وسارت العربة إلى لندن حيث تقرر أن تصحب جين بقية الجماعة إلى بيتها.

وقالت مارية بعد صمت دام بضع دقائق: «رحماك اللهم، يبدو لنا كأنه لم يمض على قدومنا إلا يوم أو يومان! ومع ذلك فما أكثر ما حدث في هذه الفترة!».

وقالت صاحبتها وهي تتنهد: «لقد حدث الشيء الكثير حقا».

«لقد تعشينا تسع مرات في روزنجس، وشربنا الشاي مرتين وما أكثر ما سأتحدث عنه؟».

وأضافت إلزبث إلى ذلك في نفسها: «وما أكثر ما سأضطر أنا إلى إخفائه!».

الفصل الثاني والثلاثون

وكان الأسبوع الذي خرجت فيه الفتيات الثلاث ليذهبن معا إلى هرتفورد شيرهو الأسبوع الثاني من شهر مايو. ولما اقتربن من النزل الذي اتفق أن تقابلهن عنده عربة مستر بنت أبصرن بسرعة كتي وليديا تطلان من نافذة غرفة الطعام في الطابق الأعلى؛ وكان ذلك شاهدا على أن السائق قد وصل في الموعد المحدد له. وكانت الفتاتان قد أقامتا في هذا المكان أكثر من نصف ساعة قضتاها كلها في مرح وسرور، بعضها في زيارة حاون للقبعات، وبعضها في النظر إلى الضباط القائمين بالحراسة، وبعضها الآخر في إعداد تابل الطعام.

وبعد أن حيث الفتاتان أختيهما أشارتا إشارة الظفر إلى مائدة أعدت عليها اللحوم الباردة وصاحتا: «أليست هذه مفاجأة سارة؟».

وأضافت ليديا إلى ذلك قولها: «ونحن نعتزم أن نضيفكن جميعاً، ولكن يجب عليكن أن تقرضننا المال لأننا أنفقنا ما عندنا منه في ذلك الحانوت من وقت قصير». ثم أظهرت ما ابتاعته وقالت: «انظرن إلى هذه الأشياء، لقد ابتعت هذه القبعة، ولست أظن أنها جميلة جداً، ولكني رأيت شراءها وعدم شرائها سيان، سأفصل أجزاءها بعضها من بعض ساعة أصل إلي البيت ثم أعيد صنعها من جديد».

ولما عاتبها أختاها وقالتا إنها قبيحة واصلت حديثها قائلة: «إن الإنسان لا يهمه ما يلبسه في هذا الصيف، لأن الفرقة العسكرية سترحل عن مريتن في خلال أسبوعين».

وصاحت إلزبث في غبطة عظيمة: «أتغادرها حقا؟».

«إنها ذاهبة لتعسكر بالقرب من بريتن، وإني لشديدة الرغبة في أن يأخذنا والدنا جميعاً لنقضي الصيف هناك! وأحب الأشياء إلى أمنا أن تذهب هي أيضاً!».

وقالت إلزبث في نفسها: «نعم، إن ذلك إذا حدث ليبعث في النفس السرور حقاً. ألا ما أعظم هذا! أنكون نحن قس بريتن حيث يوجد معسكر غاص بالجند، بعد أن أفسد علينا أمرنا فرقة صغيرة، والرقص في مريتن كل شهر؟».

وقالت ليديا بعد أن جلسن إلى المائدة: «والآن إن عندي لكن أخباراً؟ إنها أخبار طيبة جداً عن شخص نحبه جميعاً».

ونظرت جين وإلزبث كلتاهما إلى الأخرى، وقيل للخادم أن لا موجب لبقائه، وضحكت ليديا وقالت:

«إن هذا يتفق بالضبط وفطنتك ومحافظتك على الأصول المرعية. لقد ظننت أن الخادم يجب ألا يسمع ما سأقول، كأنه يهمه أن يسمعه! ولكنه إنسان قبيح بشع، ويسرني أن قد ذهب، والآن إليكما ما عندي من

الأخبار، إنها أخبار عن عزيزنا وكهام. لا خوف من أن يتزوج ميري كنج، فقد غادرت المكان، ونجا وكهام».

وأضافت إلزبث: «ونجت ميري كنج! نجت من زواج ليس فيه شيء من التبصر من ناحية الثروة».

وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام وأدت الفتاتان الكبيرتان الثمن، جيء بالعربة، وجلسن فيها جميعاً، بعد أن قاسين في ذلك بعض الصعوبة، ومعهن صناديقهن، وأكياس شغلهن، وطرودهن، وما ابتاعته كتي وليديا، وهو ما لم ترحب الجماعة بأخذه معها.

وصاحت ليديا: «لقد حشرنا في العربة حشراً ما أحسنه! والآن فلنسترح ونتحدث ونضحك طول الطريق حتى تصل إلى المنزل، ولنسمع أول الأمر ما حدث لكما جميعاً مذ سافرتما. هل رأيتما رجالا حسانا. لقد كنت عظيمة الرجاء في أن تحصل إحداكما على زواج لها قبل أن تعود إلينا، إني لأصرح لكما بأن يجن ستصبح عما قريب عانساً، لقد كادت تبلغ الثالثة والعشرين من العمر، وإذا لم أتزوج أنا قبل أن أبلغ هذه السن أستحيت من نفسي! أي والله! ما أشد رغبتي في أن أتزوج قبل أن تتزوج واحدة منكن!».

وبهذه الطريقة الصاخبة حاولت ليديا أن تسلي رفيقتها في الطريق إلى لنجبورن، مستعينة على ذلك بما تضيفه كتي من عبارات، ولم تعرها إلزبث

إلا أقل ما تستطيع من الالتفات، ولكنها لم يفتها أن تسمع اسم وكهام يذكر مراراً عدة.

واستقبلت الفتيات في المنزل أحسن استقبال. وسر مسز بنت أن ترى جين جميلة كعهدها بها، وقال مستر بنت لإلزبث أكثر من مرة أثناء العشاء:

«لقد سرني أنك عدت يا لزي».

وكانت الجماعة التي ضمتها حجرة الطعام كبيرة العدد، لأن آل لوكاس قد حضروا كلهم تقريباً لاستقبال مارية وسماع الأخبار. وأخذت السيدة لوكاس تسأل مارية، وقد جلست في الجهة المقابلة لها من المائدة، عن صحة ابنتها الكبرى، وعن شئون بيتها. أما مسز بنت فقد كان يشغلها أمران، أولهما أن تستخلص وصفا للأزياء الحديثة من جين التي كانت تجلس إلى المائدة على بعد منها، وفي الصف الذي كانت هي جالسة فيه؛ وثانيهما أن تعيد ما تسمعه على بنات لوكاس الصغيرات. وأخذت ليديا تصف بصوت أعلى من صوت جميع الحاضرات جميع متع الصباح المختلفة لكل من تعني بالإصغاء إليها.

وكان مما قالته: «آه يا ميري! ليتك ذهبت معنا، فقد كان سرورنا عظيماً حقا! وما كان أعلى صوتنا في حديثنا وضحكنا، حتى لقد كان في وسع أي إنسان أن يسمعنا على بعد عشرة أميال منا!».

وأجابت ميري عن ذلك بتؤدة: «حاشاي يا أختي العزيزة أن أزدري هذه المتع، ولكني لا أخفي عنك أنها لا تسبب لي أية بهجة، وأفضل منها في نظري أن أقرأ كتاباً».

ولكن ليديا لم تسمع كلمة واحدة من هذا الرد؛ ذلك أنها قلما كانت تستمع لإنسان ما أكثر من دقيقة واحدة، ولم تلتفت قط إلى ميري.

وألحت ليديا على سائر البنات بعد منتصف النهار أن يسرن إلى مريتن، ولكن إلزبث عارضت الفكرة باستمرار، وحجتها أنه يجب ألا يقول أحد إن بنات بنت لا يستطيعن البقاء في بيتهمن نصف نهار قبل أن يجرين وراء الضباط. على أنه كان هناك سبب آخر لمعارضتها، فقد كانت تخشى أن ترى وكهام مرة أخرى، واعتزمت أن تتحاشى لقاءه أطول وقت مستطاع.

الفصل الثالث والثلاثون

ولم تستطع إلزبث أن تصبر أكثر مما صبرت على عد الإفضاء إلى جين بما حدث، واعتزمت أخيراً أن تكتم في نفسها جميع التفاصيل الخاصة بأختها، وبعد أن هيأت ذهنها لسماع ما يدهشها، أخذت تقص في صباح اليوم التالي معظم مت حدث بينها وبين مستر دارسى. ثم تحدثت لها عن رسالته، وأعادت على مسامعها كل ما حوته ختصاً بجورج وكهام. وما كان أشد وقع هذا على جين المسكينة التي كانت تتمنى لو أنها خرجت من هذا العالم دون أن تصدق أن مثل هذا الشر الذي تجمع في واحد يمكن أن يوجد في النوع الإنساني كله.

وكان مما قالته: «لست أعرف متى تلقيت صدمة أكثر من هذه! أيبلغ وكهام من الدناءة هذا المبلغ؟ إن هذا لا يكاد يصدقه العقل. ثم فكري عزيزتي لزي في ستر دارسى المسكين وما قاساه دون ريب. فكري في خيبة آماله مضافاً إليها علمه بسوء ظنك فيه واضطراره إلى أن يفضي بما أفضى به عن أخته!».

«إن هناك نقطة أحب أن أستشيرك فيها، أريد أن أعرف هل يجب عليّ أن أكشف إلى من أعرفهم بوجه عام عن أخلاق وكهام أولا يجب عليَّ أن أفعل ذلك؟».

وصمتت الآنسة بنت قليلا ثم أجابتها بقولها: «لا شك في أنه لا داعي لأن يفضح هذه الفضيحة الشنيعة؛ وما رأيك أنت في هذا؟».

رأيي هو أنه يجب ألا أحاول هذا، فمستر دارسى لم يجز لي أن أعلن إلى الناس ما قاله لي، ولهذا لن أقول الآن شيئاً عما سمعته».

«إنك محقة كل الحق. إن إعلان أخطائه على الجمهور قد يقضي عليه قضاء أبديا. ولربما كان هو الآن بندم على ما فعل، ويتوق إلى إصلاح نفسه».

وأدى هذا الحديث إلى إزالة ما كان قد استولى على عقل إلزبث من اضطراب. لقد تخلصت من سرين من الأسرار التي ظل صدرها ضائقاً بها أسبوعين، وأيقنت أن جين تحب أن تستمع إليها كلما أردت أن تتحدث لها بعد ذلك عن هذين السرين، غير أنها لم تجرؤ على أن تقص على أختها النصف الثاني من خطاب دارسى، أو أن تشرح لها كيف كان صديقه يقدرها أعظم تقدير. لقد كانت هذه معلومات لا يستطيع أحد أن يشاركها فيها.

وأتيبح لها حينئذ من الوقت ما يمكنها من ملاحظة نفسيية أختها، لقد لاحظت أن جين لم تكن سعيدة، فقد كانت لا تزال تشعر بعطف قلبي على بنجلي.

وقالت مسز بنت في يوم من الأيام: «حدثيني يا لزي، ماذا ترين الآن في أمر جين المحزن؟».

«لست أظن أن مستر بنجلي سيسكن في نذرفيلد بعد الآن».

«فليكن! وليختر لنفسه ما يحلو له، ولكن الذي أجد فيه سلوى هو أن جين ستموت كسيرة القلب، وحينئذ يندم هو على ما فعل».

ولما كانت إلزبث لم تجد شيئاً من السلوى في هذه الأقوال فإنها لم تجب بشيء.

وواصلت أمها الحديث بعدئذ قائلة: «وهكذا يا لزي يعيش آل كلنز عيشة راضية، أليس كذلك؟ هذا كله حسن، وكل ما أرجوه أن تدوم هذه العيشة الراضية. وما شأن مائدتهم؟ لست أشك في أن شارلوت بارعة في إدارة المنزل. وإذا كانت تبلغ من الحرص مبلغ أمها فإنها تقتصد كثيراً. وأظن أنهم يتحدثون كثيراً عن استيلائهم على لنجبورن بعد وفاة والدك. ولا ريب في أنهم ينظرون إليه نظرتهم إلى ملكهم الخاص. وإني لأستحي أن تكون لي ضيعة آلت إليَّ بمثل هذه الشروط الظالمة».

الفصل الرابع والثلاثون

وكان الأسبوع الثاني بعد عودتهن هو آخر أسبوع تقيمه الفرقة العسكرية في مريتن، ومن أجل هذا أخذت فتيات الجهة المجاورة تكتئبن بسرعة فائقة. وكانتبنات بنت الكبيرات وحدهن هن اللاتي ظللن يأكلن ويشربن وينمن ويقمن بعملهن كما اعتدن، وكثيراً ما كانت كى وليديا اللتان بلغ بهما البؤس غايته تونباهن على قسوة قلوبهن.

وكثيراً ما كانتا تصحيان من فرط ألمهن: «يالله! ماذا يكون مصيرنا؟ كيف تستطيعين الابتسام هكذا يا لزي». وكانت أمهن الرقيقة القلب تشاركهما جميع أحزانهما، فقد كانت تذكر ما قاسته في ظرف مماثل لظرفهما أثناء شبابها.

وقالت لهما: «وأنا واثقة من أني ظللت أبكي يومين حينما ارتحلت أسرة الكولونل ملر، وخيل إليَّ وقتئذ أن قلبي سيتحطم».

وقالت ليديا: «ولست أشك في أن قلبي أنا سيتحطم».

وقالت مسز بنت: «ليت في وسع الإنسان أن يذهب إلى بريتن».

«نعم ولكن أبانا رجل شكس نكد».

هذه هي الشكايات التي كانت تتردد على الدوام في بيت لنجبورن وحاولت إلزبث أن تتخذ منها موضوعاً للهو والتسلية، ولكن كل ما كانت تنطوي عليه من مرح قد أضاعه ما فيها من عار. وشعرت وقتئذ بعدالة ما وجهه مستر دارسى من انتقاد، ول تكن في وقت من الأوقات أكثر مما هي الآن ميلا إلى الصفح عن تدخله في أفكار صديقه.

ولكن الظلام الذي كان يكتنف مستقبل ليديا لم يلبث أن تبدد. ذلك أنها تلقت دعوة من مسز فورستر زوجة كبير ضباط الفرقة لأن تصحبها إلى بريين. وكانت صديقتها هذه شابة في مقتبل العمر تزوجت من وقت قريب جداً.

وليس في وسع الإنسان أن يجد ألفاظاً يصف بها سرور ليديا بهذه الدعوة، أو ابتهاج مسز بنت، أو غضب كتي وغيرتها. ولم تمر ليديا إحساس أختها أقل عناية، وأخذت تنتقل مسرعة في أنحاء المنزل في انفعال واضطراب، تستجدي التهنئة من كل إنسان، وتضحك وتتحدث بعنف لم يكن له مثيل في حياتها الماضية، على حين ظلت كتي البائسة تندب سوء حظها.

وكان مما قالته: «لست أدري لِمَ لم تدعني مسز فورستر كما دعت ليديا؟ إن لي من الحق في أن أدعي مثل ما لها، بل إن حقي في هذه الدعوة يفوق حقها، فأنا أكبر منها بسنتين».

وحاولت إلزبث أن تردها إلى صوابها كما حاولت جين أن تجعلها تستسلم للقضاء المحتوم، ولكن محاولاتهما ذهبت أدراج الرياح. أما إلزبث نفسها فقد رأت في هذه الدعوة الضربة القاضية على كل أمل في سلامة ذوق ليديا وحسن إدراكها، ولم يكن في وسعها أن تمنع نفسها من أن تشير على أبيها خفية ألا يصرح لأختها بالذهاب، وإن كان من شأن عمل كهذا إن عرف أن يبغض أختها فيها. ومع ذلك فقد أفهمته أن ليديا إذا وجدت مع رفيقتها هذه ستكون أكثر طيشاً في بريتن حيث المغريات أقوى بالتأكيد مما في موطنها.

وقالت إلزبث لوالدها: «ولست أشك في أنك لو علمت بالضرر العظيم الذي لحقنا حتى الآن بعد أن شاهد الناس سلوك ليديا الخالي من الاحتشام لرأيت أن ذهابها ينافي الحكمة والعقل».

وأعاد والدها قولها: «الذي لحقنا حتى الآن»، ثم واصل حديثه قائلا: «ماذا حدث! هل نفرت بعض عشاقك؟ مسكينة يا لزي الصغيرة، ولكن لا تكتئبي. إن الفتيات اللاتي لا يتصفن بشيء قليل من السخف غير جديرات بأن يأسف الإنسان عليهن».

لكن إلزبث اعتذرت لأبيها عن صراحتها في حديثها إليه، وظلت جادة في لفت نظره إلى استهتار ابنتيه الصغيرتين في سلوكهما العام، وإلى ما يتهددهما من خطر ثباتهما على هذه الأخلاق في المستقبل. ورأى هو أنها

تحدثه في هذا الموضوع من صميم قلبها، فأمسك بيدها في عطف وحنان وأجابها بقوله:

«لا تشغلي بالك بهذا الأمر يا حبيبتي. ما من شك في أنك أنت وجين تحترمان وتقدران في كل مكان تعرفان فيه. ولا يمكن أن يقلل من قدركما أن لكما اثنتين– وقد أقول ثلاثاً– من الأخوات السخيفات القاصرات العقل، وإذا لم تذهب ليديا إلى بريتن فلن يسود السلام في هذا المنزل. دعيها تذهب إذن؛ فالكولونل فورستر رجل عاقل، وسينأي بها عن طريق الشر الحقيقي. ومن حسن الحظ أنها قد بلغت من الفقر درجة تنأى بها عن أن تكون مطمعاً لأي إنسان. وستكون في بريتن أقل شأناً مما هي في هذا المكان، فلنرج إذن أن تتعلم التواضع من وجودها هناك».

واضطرت إلزبث على الرغم منها أن تقنع بهذا الجواب.

الفصل الخامس والثلاثون

وحان الوقت الذي ترى فيه إلزبث مستر وكهام آخر مرة.

ولما كانت قد رافقته كثيراً بعد عودتها إلى بيتها، فقد أصبح وجودها معه أمراً مألوفاً لها، وكان اهتمامها به قد زال، ولم يبق منه شيء؛ هذا إلى أن سلوكه معها في ذلك الوقت كان سبباً جديداً من أسباب سخطها. ذلك أن ما كان يظهره من الميل إلى تجديد عنايته بها بعد أن رحلت الآنسة كنج، قد دلها على أنه يرى فيها من الغرو روالبله ما يجعلها تغتبط بالالتفات الذي يوجهه إليها في أي وقت يختاره هو للتفضل به عليها.

وتعشى وكهام في لنجبورن مع بعض الضباط في آخر يوم من مقام الفرقة العسكرية هناك. وكانت إلزبث قليلة الرغبة في أن يفترقا وهما على وئام؛ ومن أجل ذلك ذكرت له أن الكولونل فتزوليم ومستر دارسى قد أقاما في روزنجس ثلاثة أسابيع، وسألته هل يعرف أول الرجلين.

وظهرت عليه أمارات الدهشة والكآبة والارتياع، ولكنه سيطر على حواسه وأجابها من فوره أنه كثيراً ما رآه من قبل، وسألها عن مقدار حبها إياه. وأجابت بحماسة أنها تحبه، وزادت على ذلك أنها، بعد أن عرفت مستر دارسى أكثر مما كانت تعرفه، فهمته هي أيضاً وأحبته أكثر مما كانت تفهمه وتحبه.

وظهر وقتئذ ارتياع وكهام في احمراء لونه واضطراب منظره، ولم يجرؤ على أن يقول أكثر مما قال كثيراً، ولكن بدأ منخ رغم تظاهره بالبشاشة أنه يسره الآن أن يغادر من الناحية.

ولما تفرق الجميع عادت ليديا مع مسز فورستر إلى مريتن؛ وكان من المتفق عليه أن يبدأا سفرهما من هذا المكان في الصباح الباكر من اليوم الثاني. وكان افتراقها من أسرتها يصحبه من الضوضاء أكثر مما يصحبه من العطف والحنان. ولم يذرف الدمع أحد من أفراد الأسرة إلا كتي، وكانت دموعها دموع الحسرة والحسد؛ وبلغ سرور ليديا الصاخب وهي تودع أسرتها مبلغاً جعل وداع أخواتها الرقيق الهادىء لا يستمع له أحد.

الفصل السادس والثلاثون

لم يكن زواج مستر بنت زواجا موفقا، فقد وقع أسير الشباب والجمال وما يخلعانه عادة على من يتصف بهما من ظرف وفكاهة. وتزوج امرأة قضى ضعف ذكائها وضيق عقلها من أول الأمر على كل ما كان لها في قلبه من حب حقيقي؛ وزال بفضلهما كل أثر للأحترام والثقة زوالاً لا رجعة له، وخسر بذلك كل ما كان يرجوه من سعادة منزلية. ولكنه كان مولعاً بالريف وبالكتب، وكان جهل زوجته وسخف عقلها مبعث سرور وتسلية له.

على أن إلزبث لم يفتها قط ما كان في سلوك والدها من شذوذ لا يليق بالأزواج. وكانت تنظر إليه على الدوام وهي متألمة، ولذلك حاولت أن تنسى ما لم تجد سبيلا إلى الإغضاء عنه. ولكنها لم تكن في وقت من الأوقات أقوى شعوراً مما هي الآن بالخطر الذي لابد أن يتعرض له أبناء مثل هذا الزواج غير الموفق.

ووعدت ليديا وقت رحيلها أن تكتب إلى أمها وإلى كتي رسائل كثيرة مفصلة، غير أن رسائلها مع ذلك كانت لا تصل إليهما إلا بعد انتظار طويل، وكانت حد قصيرة على الدوام. فأما رسائلها إلى أمها فلم تكن تحتوي إلا أتفه الأخبار، وأما رسائلها إلى كتي فقد كانت على قصرها تحتوي كثيراً من الأسرار، تطلب قراءتها إلى سائر أفراد الأسرة.

وما من شك في أن الحياة في مريتن أصبحت أكثر كآبة بسبب رحيل الفرقة العسكرية؛ وأخذت إلزبث تترقب رحلتها إلى الشمال مع خالها وزوجته؛ وكان موعدها يقترب في كل يوم، ولذلك كانت خيبة آمالها شديدة حين علمت أن أعمال خالها تحول بينه وبين البعد عن لندن الزمن الطويل الذي كان يرجوه. واضطرت الأسرة أن تقتطع من الرحلة زيارة البحيرات، وأن تستعيض عنها برحلة أقصر كثيراً مما كان مقرراً من قبل. وأصبحت الرحلة حسب المشروع الجديد لا تبتعد شمالا عن دربي شير، حيث كانت ترجو مسز جاردنر أن تعود إلى زيارة البلدة التي قضت فيها أوائل حياتها.

وكان ذكر دربي شير يثير كثيراً من الأفكار، ولم يكن في وسع إلزبث أن تسمع هذا اللفظ دون أن تفكر في بمبزلي وفي مالكه.

الفصل السابع والثلاثون

وأخيراً انتهت فترة الانتظار وظهر مستر جاردنر وزوجته وأطفالهما الأربعة في لنجبورن. وكان المتفق عليه أن يبقى الأطفال الأربعة– وهم بنتان إحداهما في السادسة من عمرها والأخرى في الثامنة وولدان أصغر منهما– أن يبقى هؤلاء الأبناء تحت رعاية ابنة عمتهم جين وهي أحب إخواتها لهم. وكان لها من ثبات العقل وحلاوة الطبع ما يؤهلها للعناية بهم من جميع الوجوه– تعلمهم وتلعب معهم وتحبهم.

ولم يقم مستر جاردنر وزوجته في لنجبورن إلا ليلة واحدة ثم بدأا مع إلزبث رحلتهما في صباح اليوم الثاني، وهما واثقان من متعة واحدة على الأقل ألا وهي الرفقة الطيبة.

وزاروا في هذه الرحلة أماكن كثيرة، ثم ولوا وجوههم آخر الأمر نحو بلدة لامتن الصغيرة من أعمال دربي شير موطن مسز جاردنر السابق، وذلك بعد أن شاهدوا جميع ما في الريف من العجائب الشهيرة. وعرفت إلزبث من زوجة خالها أن بمبرلى لا تبعد عن لامتن أكثر من خمسة أميال؛ ولما أخذت مسز جاردنر تتحدث عن مشروعاتهم أظهرت ميلها لزيارة هذا المكان مرة أخرى. وأعلن مستر جاردنر رضاءه عن هذه الزيارة، وسئلت ابنة أخته هل يوافق عليها؟

واكتأبت إلزبث لأنها شعرت أن لا شأن لها بذلك المكان. على أنها ادعت أنها قد ملت رؤية البيوت العظيمة، وظنت مسز جاردنر أن هذه سخافة منها، وتحيرت إلزبث في أمرها، فلم تدر ما تفعل. ذلك أن احتمال مقابلتها مستر دارسى أثناء زيارتها لهذا المكان كان ما تخشاه أشد خشية. وأحمر وجهها من مجرد التفكير في هذا اللقاء. على أنها استطاعت أن تعرف من خادم في النزل الذي كانوا فيه أن مالك الضيعه غائب عنها، فلما أن أعيد ذكر الموضوع في صباح اليوم الثاني ووافقت من فورها على الزيارة، لأن ما بدا عليها قبل ذلك من الارتباك قد تبدل الآن تطلعاً وتشوفاً.

وكان عقل إلزبث والعربة تسير بهم غاصاً بالأفكار، فحال ذلك بينها وبين الحديث، ولكنها كانت تشاهد كل بقعة مشهورة وتعجب بها. وكان البستان فسيحاً واسع الأرجاء، واخترقوا في طريقهم غاية جميلة تغطي أرضاً واسعة، وكان بين بمبرلى بيتا فسيحا جميل البناء، يقوم على أرض مرتفعة، وأمامه مجرى طبيعي ذو شأن وشع من غير أن يرى فيه أثر ليد الإنسان. وسرت إلزبث بهذا كله لأنها لم تر من قبل مكاناً خلعت عليه الطبيعة كل هذا الرواء، واحتفظ بجماله الطبيعي فلم يتلفه الذوق الفاسد. وكان خالها وزوجته شديدي الإعجاب بالمكان، وشعرت في هذه الساعة أنها لا تستنكف أن تكون سيدة بمبرلى!

ولما طلبوا أن يروا المكان سمح لهم بدخول الردهة، وجاءت مديرة المنزل– وهي سيدة كبيرة السن وقورة– وأطلعتهم على الحجر المهمة فيه.

وكانت كل نافذة تطل على أنواع من الجمال، وكانت الحجرات نفسها عالية جميلة ومؤثثة تأثيثاً على حسن الذوق.

وقالت في نفسها: «وهذا المكان هو الذي كان من الجائز أن أصبح سيدته؛ وبدل أن أشاهده الآن أشاهد الزائرين كنت فب هذه الحال أرحب بخالي وزوجته ضيفين عندي». ثم تذكرت قول دارسى فواصلت حديثها لنفسها: «ولكني مخطئة فإني لم يكن لي في هذه الحال أن أدعو إليه أقاربي».

وكانت هذه ذكرى موفقة– فقد أنجتها مما يشبه الندم.

وتاقت لأن تشأل مديرة المنزل هل صاحبه متغيب حقاً، وأخيراً سأل خالها هذا السؤال، وأشاحت بوجهها وهي منزعجة حين سمعت الجواب: «إنا ننتظر مجيئه غداً مع جماعة كبيرة من أصدقائه».

وطلبت إليها زوجة خالها في هذا الصور، وسألتها وهي تبتسم عن مبلغ حبها إياها، وكانت صورة وكهام. وذكرت مديرة المنزل اسمه واتبعته بقولها: «وقد ذهب لينضم إلى الجيش ولكنه مع الأسف قد أصبح شرساً جداً».

ونظرت مسز جاردنر إلى قريبتها وهي تبتسم، ولكن إلزبث لم يكن في وسعها أن ترد على هذه الابتسامة بمثلها.

ثم نظروا إلى صورتين تمثلان مستر دارسى وأخته، وسأل مستر جاردنر قائلا: «وهل يعادل جمال الآنسة دارسى جمال أخيها؟».

فأجابت مدير المنزل: «نعم، فهي أجمل شابة رآها الناس، وهي مهذبة أحسن تهذيب! فهي تعزف وتغني طول النهار، وفي الحجرة الثانية آلة موسيقية جديدة أحضرت لها تواً– وهي مهداة من سيدي. وستأتي معه إلى هنا غداً».

«وهل يقيم سيدك كثيراً من أيام السنة في بمبرلى؟».

«إنه لا يقيم فيه بالكثرة التي أرغب فيها. أما الآنسة دارسى فتأتي إليه على الدوام لتقضي فيه أشهر الصيف».

وقالت إلزبث في نفسها: «إلا إذا سافرت إلى رمز جيت».

«ولو تزوج سيدك لرأيته أكثر مما ترينه الآن».

«نعم يا سيدي، ولكني لست أعرف أية فتاة تصلح له».

وتبسم مستر جاردنر وزوجته.

«إني لا أقول غير الحق. إني لم أسمع منه كلمة غضب واحدة في حياتي مع أني أعرفه مذ كان في الرابعة من عمره».

وأثار هذا الحديث التفات إلزبث الشديد. لقد كان هذا هو أعجب ما سمعت من مديح، وهو يناقض آراءها أشد المناقضة.

«وهو خير الأسياد وخير الملاك الذين وجدوا على ظهر الأرض. إن بعض الناس يصفونه بالكبرياء، ولكني لم أر من كبريائه شيئاً».

وابتهج مستر جاردنر أعظم ابتهاج حين استمرت مديرة المنزل تعدد صفات سيدها الطيبة، وأعتقد أن ثناءها العظيم عليه ليس إلا نتيجة ميلها إلى أسرته».

وهمست مسز جاردنر في إذن إلزبث قائلة: «إن هذا الوصف الجميل لا يتفق ومسلكه مع صديقتنا المسكينة».

وتمتمت إلزبث قائلة: «إنهما ربما كانتا مخدوعتين».

«هذا أمر بعيد الاحتمال، فإن المصدر الذي استقينا منه معلوماتنا مصدر موثوق به».

ثم أدخلوا حجرة استقبال صغيرة جميلة جدد أثاثها من وقت قريب، وقيل لهم إن هذا التجديد إنما عمل لتسر به الآنسة دارسى، فقد أظهرت حبها لهذه الحجرة في آخر زيارتها لبمبرلى.

وقالت مديرة المنزل: «وهذه هي طريقته على الدوام، ما من شيء يسر أخته إلا فعله من فوره».

وقالت إلزبث: «إنه أخ طيب بلا ريب».

ولا ريب في أنها كانت في تلك اللحظة تحس نحوه إحساساً أرق مما أحست به حين بلغت معرفتها إياه غايتها. قد كانت كل فكرة تنطق بها مديرة المنزل ثناء على خلقه، ولما نظرت إلى صورته مرة أخرى، فكرت في حسن ظنه بها، وأثار هذا التفكير فيها شعوراً بالشكر له أقوى مما أثاره في أي وقت مضى.

الفصل الثامن والثلاثون

ولما فرغوا من مشاهدة المنزل خرجوا للإعجاب بالجنائن بإرشاد البستاني. وبيناهم سائرون نحو النهر التفتت إلزبث وراءها لتلقي على البيت نظرة أخرى، فأبصرت صاحبه يظهر فجأة من الطريق المار خلفه.

ولم يكن بينهما أكثر من خمسين ياردة، وكان ظهوره على حين غفلة منها فلم يكن في وسعها أن تتحاشى رؤيته. والتقت أعينها، وعلت خدودهما حمرة فائنة، وفزع هو أشد الفزع، وظل برهة من الزمان وكأنه قد عجز عن الحركة لشدة دهشته، لكنه سرعان ما تملك حواسه، وتقدم نحو الجماعة، وتحدث إلى إلزبث حديثا، كان على الأقل غاية في الأدب، وإن لم يكن هادئا كل الهدوء.

وكانت حين أبصرته قد ولت وجهها عنه، فلما رأته يقترب وقفت وتلقت تحياته لها وهي مرتبكة أرتباكاً لم يكن في وسعها أن تتغلب عليه. ووقف مستر جاردنر وزوجته على بعد قليل بينا كان دارسى يتحدث إلى إلزبث. ولم تجرؤ لدهشتها وارتباكها أن ترفع عينيها إلى وجهه، ولم تدر ما أجابت به عن أسئلته المؤدبة عن أسرتها. واستولت عليها الدهشة لما طرأ على أخلاقه من تبدل بعد أن افترقا، ولهذا رأت أن كل عبارة ينطق بها تزيد من حيرتها.

ومر بعقلها ما في وجودها في ذلك المكان من خرق وعدم لياقة، فكانت الدقائق القليلة التي وجدت فيها معه أصعب ما مر عليها من الأوقات في حياتها وأشدها مضايقة لها. ولم يكن هو نفسه بأحسن حالاً منها، ذلك أنه لما تحدث إليها لم يكن في صوته ذلك الهدوء المألوف، وكان يكرر بعض أسئلته أكثر من مرة.

وأخيراً بدا وكأنه قد نفد كل ما عنده من أفكار، فوقف بضع دقائق، لا ينطق فيها بكلمة، ثم استأذن منها أن ينصرف. وانضم إليها بعدئذ سائر الجماعة، وغلب عليها الخجل والضجر. لقد كانت فكرة مجيئها إلى ذلك المكان أشأم الأفكار وأكثرها سفها! ففي أية صورة شائنة مذلة سيبدو مجيئها هذا لعقل هذا الرجل المتكبر المغرور؟ لقد يبدو له أنها ألقت بنفسها مرة أخرى في طريقه. رباه! لم جاءت إلى ذاك المكان؟ أو لِمَ عجل هو بالمجيء قبل اليوم الذي كان ينتظر فيه قدومه بيوم؟ ولم تغير سلوكه هذا التغيير العجيب؟ ما معنى هذا كله. إن مجرد حديثه لها كان غاية في الغرابة! فما بالك إذا تحدث إليها بمثل ما تحدث من الأدب وسألها عن أسرتها! إنها لم تراه في حياتها كلها أكثر ظرفا مما رأته في هذا اليوم، والحق أنها قد تحيرت فلم تعرف ماذا تظن.

وشرعوا الآن يسيرون في طريق جميل بجانب الماء، ولكن مضى بعض الوقت قبل أن تستطيع إلزبث أن توجه إليه أي التفات، وإن كانت قد أجابت على ملاحظات رفيقيها إجابات آلية، فقد كانت تتوق إلى معرفة

ما كان يدور في عقل مستر دارسى، وهل لا تزال عزيزة عليه بالرغم من كل ما حدث منها؟

وبعد أن جالوا في المكان بعض الوقت في خطا وئيدة، لأن التعب أخذ يحل بمسزجاردنر التي لم تكن تطيق المشي الكثير، فوجئوا مرة أخرى برؤية مستر دارسى يقترب منهم. ونظرت إليه إلزبث نظرة خاطفة، فأدركت أنه لم يفقد شيئاً من أدبه الذي ظهر به توا، وأرادت أن تقلده في هذا فأخذت تبدي إعجابها بالمكان، ولكنها لم تكن تعبر عن هذا الإعجاب بغير لفظ «ساحر». وبينا هي كذلك إذ خطرت ببالها فكرة مشئومة إذكرتها أن ثناءها على بمبرلى قد يساء فهمه، ثم امتقع لونها ولم تنطق بكلمة أخرى.

ولما سكتت سألها هل تتفضل بتقديمه إلى صديقيها. وأخذت في هذا على غرة، وقالت في نفسها: «ماذا عسى أن تبلغ دهشته حين يعرف حقيقة أمرهما؟ إنه يظنهما الآن من الطبقة الراقية». لكنها مع ذلك قدمته لها على الفور، ولما ذكرت له قرابتهما إليها نظرت إليه خلسة لترى أثر ذلك فيه. واتضح لها أنه دهش، ولكنه بدل أن يغادر المكان ذهب إليهما وأخذ يتحدث إلى مستر جاردنر. ولم يسع إلزبث إلا أن تغتبط بمسلكه هذا، فقد كان يريح بالها أن يعرف أن لها أقارب ليس ثمة ما يوجب أن تخجل منهم. وأصغت إلى حديثه معها بعناية، وسرتها كل عبارة منه وكل جملة نطق بها خالها تدل على شدة ذكائه ورقة ذوقه وحسن أدبه.

وسرعان ما انتقل الحديث إلى صد السمك، وسمعت مستر دارسى يدعوه في أدب جم إلى الصيد في ذلك المكان كلما شاء.

وكانت مسز جاردنر وقتئذ تسير متأبطة ذراع إلزبث، فنظرت إليها نظرة عبرت فيها عن دهشتها، ولم تقل إلزبث شيئاً، ولكن هذه الدعوة أرضتها غاية الرضا، ذلك أن التحية كانت كلها من غير شك موجهة لها هي.

وبعد قليل من الوقت تعبت مسز جاردنر من رياضة الصباح، فلم تجد في ذراع إلزبث عوناً كافياً لهان ولذلك فضلت عنها ذراع زوجها، وحل مستر دارسى محلها بجانب إلزبث. وبعد صمت قصير تكلمت هي أولا فقالت له إنها تحب أن يعرف أنهم أكدوا لها قبل مجيئها إلى هذا المكان أنه غائب عنه، واعترف هو بأنه عجل بالعودة لبعض شئونه، ثم أضاف إلى هذا قوله: «إن بقية الجماعة الذين كانوا معي سيأتون إلى هنا غدا، ومنهم من يدعون بأنهم يعرفونك– مستر بنجلي وأختاه».

ولم تجب إلزبث بأكثر من انحناءة خفيفة.

وبعد صمت قليل واصل حديثه قائلاً: «ومنهم إنسان شديد الرغبة في التعرف بك، فهل تسمحين لي بأن أقدم لك أختي، أو هل تظنين أني بهذا الطلب قد عدوت طورى؟».

وكانت دهشتها من هذا الطلب عظيمة حقا. لقد بلغت هذه الدهشة حدا لم تدر معه كيف وافقت عليه؟

ثم سارا بعدئذ صامتين. ولم تكن إلزبث مطمئنة النفس، فقد كان اطمئنانها في مثل هذا الموقف أمراً مستحيلاً. ولكن طلبه هذا كان فيه إطراء لها يسرها.

ولما لحق بهما مستر جاردنر وزوجته عند الدار ألح عليهم جميعاً أن يدخلوها ويتناولوا بعض المرطبات، ولكنهم اعتذروا عن عدم قبول الدعوة، وساعد مستر دارسى السيدتين على ركوب العربة، ولما انطلقت بمن فيها شاهدته إلزبث يسير على مهل نحو البيت.

وأخذ خالها وزوجته يتحدثان عن الأثر الطيب الذي تركه فيهما، وأخذ أيلومانها بقولهما: «بأي حق قلت لنا أنه شخص فظ؟». وقدمت إلزبث من الأعذار أحسن ما كانت تستطيع تقديمه.

يم رأت من واجبها أن تقول لهما– بأكثر ما تسطيع من التحفظ والحرص– إنها تعتقد أنها لم تكن على حق في ظنها أنه أخطأ في معاملة وكهام. ودهشت مسز جاردنر من هذا القول، ولكنهم كانوا وقتئذ يقتربون من الأماكن التي قضت فيها عهد شبابها، فكان اهتمامها كله موجها إلى ما في الذكريات القديمة، ومافي لقاء الأصدقاء القدامى بعد غياب كثير من السنين، من مسرات ومتع. ولهذا أمنت إلزبث من الأسئلة المربكة، وكان في وسعها أن تجعل شغلها الشاغل أفكارها هي نفسها.

الفصل التاسع والثلاثون

وجاء مستر دارسى بأخته لزيارة إلزبث بعد ساعات قليلة من قدوم أخته إليه في اليوم الثاني. ودهش جاردنر وزوجته أشد دهشه، ولاحت لهما فكرة جديدة في هذا الموضوع.

ورأت إلزبث وهي مندهشة أن صاحبتها الجديدة لم تبلغ من الكبرياء غايته كما كان يصلها عنها، وأن كل ما كانت تتصف به هو الحياء الشديد. وكانت تلوح على وجهها علائم التعقل والفكاهة العذبة، وكانت آدابها راقية إلى أقصى حد.

ولم يمض على وجودهما إلا قليل من الوقت حتى جاء بنجلي أيضا لزيارة إلزبث. ولم تر تغيرا في أخلاقه، فقد كان ينظر إليها ويتحدث معها في سهولة حديث الصداقة، ولم يكن في نظر مستر جاردنر وزوجته أقل لطفا في نظرها هي. لقد كانا يتطلعان إلى رؤيته من زمن بعيد، والحق أن الجماعة التي كانت أمامهما قد أثارت كلها اهتمامهما الشديد، فقد كانا يعنيان بلاحظة مستر دارسى وإلزبث، ولا يخالجهما بعض الشك في عواطفها نحوه، ولكن إعجاب دارسى العظيم بها كان يبدو لهما واضحا كل الوضوح.

أما إلزبث فكان يشغلها الشيء الكثير. لقد كانت ترغب في أن تبدو لزائريها لطيفة ظريفة؛ وكانت تراقب بعينيها مستر بنجلي والآنسة

دارسى، وهي التي كان يراد أن تحل عنده محل جين؛ ولم تر في سلوكه أو سلوكها ما يبرر أقوال الآنسة بنجلي. وانتهز بنجلي فرصة اشتغال الجماعة بالحديث، فقال لإلزبث بصوت يبدو فيه أسفه الحق إنهما لم يلتقيا من ثمانية أشهر أي من يوم حفلة ندرفيلد الراقصة، وسر إلزبث أنه كان قوى الذاكرة إلى هذا الحد. وانتهز بعد ذلك فرصة أخرى فسألها على حدة هل أخواتها كلهن في لنجبورن. ولم يكن في السؤال شيء غير عادي، ولكن نظراته وهيئته أكسبته معنى لم يكن له.

ولم يكن في استطاعتها أن توجه نظراتها كثيرا إلى مستر دارسى نفسه، ولكنها كلما استطاعت أن تلقي نظرة خاطفة عليه، رأته يبذل غاية جهده ليكسب حسن ظن خالها وزوجته به. ولما انتهت الزيارة دعوا جميعاً للعشاء في بمبرلى بعد يومين من ذلك الوقت.

الفصل الأربعون

واستقر رأي إلزبث وزوجة خالها على أن ما أظهرته الآنسة دارسى من المجاملة العظيمة بزيارتها لهما يوم وصولها بالذات يجب أن يحتذى، وإن كان من المستحيل عليهما أن يبلغا من المجاملة ما بلغته هي. ولهذا اعتزما أن يزوراها في بمبرلى في صباح اليوم الثاني. وسرت إلزبث من هذا، وإن كانت حين سألت نفسها عن سبب هذا السرور لم تجد إلا القليل الذي كان في وسعها أن تجيب به عن هذا السؤال.

ولما وصلتا إلى الدار استقبلتهما الآنسة دارسى، وكانت وقتئذ جالسة مع مسز هرست والآنسة بنجلي والسيدة التي كانت تقيم معها في لندن. وكان استقبال جورجيانا لعما يغلب عليه الحياء الشديد، وكان من شأنه أن يطبعه خطأ بطابع الكبرياء، لولا أن مسز جاردنر وقريبتها لم تظلماها ورثتا لحالها.

ولم تستقبلهما مسز هرست والآنسة بنجلي بأكثر من انحناءة، ولما جلستا أعقبت ذلك الجلوس فترة من الصمت ثقيلة مملة، قطعتها أولا رفيقة للآنسة دارسى، وهي سيدة مهذبة أخذت تتحدث إلى مسز جاردنر حديثاً شاركيتهما فيه إلزبث من حين إلى حين. وظهر على الآنسة دارسى كأنها ترغب في أن يكون لها من الشجاعة ما يكفي للاشتراك في هذا الحديث.

وسرعان ما رأت إلزبث أن عيني الآنسة بنجلي ترقبان كل حركاتها وسكناتها. وبعد أن مضى ربع ساعة من بدء الزيارة سألتها الآنسة بنجلي في فتور عن صحة أسرتها، وأجابتها إلزبث جواباً لا يقل عن سؤالها فتوراً.

ثم دخل بعض الخدم يحملون اللحم البارد والفطائر وطائفة مختلفة من أحسن فاكهة ذلك الفصل؛ وبعد وقت قصير أقبل مستر دارسى بعد أن قضى بعض الوقت في صيد السمك مع مستر جاردنر.

وهددت إلزبث حكمتها إلى أن تعتزم الظهور هادئة غير مرتبكة على الإطلاق، وبخاصة حين أدركت أن الجماعة كلها قد أخذت ترتاب في سلوكها. ولم يظهر الإلتفات والاستطلاع قويين في وجه أحد من الحاضرين كما ظهر في وجه الآنسة بنجلي، على الرغم مما علاه من بسمات حين كانت تتوجه بالحديث إلى أحدهما، وذلك لأن الغيرة لم تكن قد غلبتها على أمرها، ولأنها كانت لا تزال تأمل في كسب قلب مستر دارسى. على أنها في لحظة من لحظات التهور الذي دفعها إليه الغضب بادرت إلى سؤال إلزبث في أدب يشوبه الاستخفاف:

«خبريني من فضلك يا آنسة إليزث، ألم تبرح الفرقة العسكرية مريتن؟ لقد كان في سفرها خسارة عظيمة لأسرتك من غير شك».

وأجابت إلزبث بنغمة فيها غير قليل من الهدوء، ولاحظت وهي تتحدث أن دارسى قد امتقع لونه كثيراً، وأن أخته غلب عليها الارتباك. أما الأنسة بنجلي فقلما كانت تعرف مقدار ما سببته لصديقها من الألم،

بل كان ما ترمي إليه هو أن تبعث الاضطراب في نفس إلزبث، وتحملها على أن تظهر الشعو ما يحقرها في عين مستر دارسى.

على أن سيطرة إلزبث على نفسها سرعان ما هدأت من عواطفه. ولما كانت الآنسة بنجلي في غضبها وخيبة آمالها لم تجرؤ على أن تقترب من موضوع مستر وكهام أكثر مما اقتربت منه قبل، فإن جورجيانا هي الأخرى استعادت هدوءها بعد قليل.

ولم تطل الزيارة بعد هذه الحادثة كثيراً، ولما عاد مستر دارسى بعد أن أوصل الزائرين إلى عربتهم أخذت الآنسة بنجلي تشغل نفسها بانتقاد مظهر إلزبث ومسلكها وملبسها.

وصاحت قائلة: «ما كان أقبح منظر إليزا بنت في صباح اليوم! إني لم أر في حياتي شيئاً تبدل كما تبدلت هي بعد فصل الشتاء. لقد أسمر لونها كثيراً وغلبت عليها خشونة الطبع؛ ولو أني سئلت عنها لما وجدت بداً من الاعتراف بأني لا أستطيع أن أرى فيها جمالا البتة. فأما معارفها فليست جميلة قط، وأما عيناها فإن لهما نظرات حادة».

ولم تكن هذه هي خير وسيلة تستطيع بها الآنسة بنجلي أن تحبب نفسها إلى مستر دارسى، وهي التي كانت مقتنعة بأنه كان يعجب بإلزبث. فقد بدا عليه الغضب وإن كان قد ظل صامتاً، وأجمعت رأيها هي على أن تنطقه فواصلت حديثها قائلة:

«أذكر كيف قلت أنت في ليلة من الليالي بعد أن عرفناها أول الأمر في هرتفوردشير وبعد أن تعشوا في نذرفيلد، أذكر كيف قلت: أهذه جميلة! لو كانت ذات جمال لكان من حقي أن أقول إن أمها ذات فكاهة!: ولكني أعتقد أنك ظننتها على شيء من الجمال فيما بعد».

ولم يستطع مستر دارسى أن يتغلب على عواطفه أكثر مما تغلب عنها، فرد عليها بقوله: «نعم، إني كنت من عدة شهور ولا زلت حتى الآن أعدها من أجمل من عرفت من النساء».

وفي هذا الوقت كانت مسز جاردنر وإلزبث تتحدثان وهما عائدتان عن كل ما حدث في أثناء زيارتهما، اللهم إلا عما كان يهم كليهما بنوع خاص، وعمن كان يشغ بالهما أكثر مما كان يشغله إي إنسان آخر، وعمن كان يشغل بالهما أكثر مما كان يشغله أي إنسان آخر. لقد تحدثتا عن أخته، وعن أصدقائه، وعن بيته، وعن فاكهته، وعن كل شيء إلا عنه هو نفسه! ولكن إلزبث كانت تتوق إلى أن تعرف رأي مسز جاردنر فيه، وكان يرضي مسز جاردنر غاية الرضا أن تفتتح إلزبث الحديث في هذا الموضوع.

الفصل الحادي والأربعون

وساء إلزبث كثيرا أن جين لم تكتب لها ساعة أن وصلت هي ومن معها إلى لامتن؛ وتجد استياؤها في كل يوم من اليومين اللذين قضتهما هناك، ولكنها ذهب عنها قلقها في اليوم الثالث حين تلقت رسالتين من جين في وقت واحد، أرسلت أولاهما إلى مكان غير المرسلة إليه لأن عنوانها لم يكن واضحا.

وسار خالها وزوجته يتنزهان وتركاها لتمتع نفسها بقراءة الرسالتين وهي هادئة. وكانت أولادهما قد كتبت من خمسة أيام قبل وصولها، وحوت في بدايتها وصفا للحفلات الصغيرة والمواعيد وطائفة أخرى من الأخبار المحلية التافهة، ولكن آخرها– وقد كتب بعد أولها بيوم وكتب بطريقة تدل واضحة على اضطراب عقلها– حوى أخبارا أكثر خطرا من أولها، ها هو ذا نصه.

«حدث يا لزي يا أعز الأخوات بعد كتابة ما تقدم حادث خطير لم يكن متوقعا قط. إن الذي سأحدثك عنه أمر خاص بليديا المسكينة، فقد وصل إلى يدي بالبريد العاجل في الليلة الماضية، بعد أن آوينا إلى مضاجعنا، خطاب من الكولونل فورستر يبلغنا فيه أنها سافرت إلى اسكتلندة مع ضابط فرقته هو الحقيقة وكهام!.تصوري أنت دهشتنا. أما كتي فلم يبد لها هذا أمرا غير متوقع قط، وقد أحزنني هذا وأمض قلبي، ألا

ما أبعد هذا الزواج عن الحمة من كلنا الناحيتين! لقد فرا مساء يوم السبت حوالي الساعة الثانية عشرة، ولكن فرارهما لم يعرف خبره إلا صباح أمس. والآن لا بد لي من أن أختم هذه الرسالة، لأني لا أستطيع الابتعاد طويلا عن أمي المسكينة التي آلم قلبها الحزن وأكسف بالها. وأخشى أنك لن تستطيعي فهم هذا الخطاب، ولكني يصعب عليّ أن أعرف ماذا كتبت».

ولم تترك إلزبث لنفسها وقتا تفكر فيه، بل إنها لم تكد تفرغ من قراءة الخطاب الأول حتى أمسكت بالخطاب الثاني، وفضته وهي قلقة فارغة الصبر، وقرأت فيه ما يأتي:

«لقد وصلتك قبل هذا يا أعز أخواتي رسالتي التي تبتها على عجل. وأرجو أن تكون هذه أوضح من سابقتها، ولكن عقلي قد بلغ من الاضطراب حدا لا أستطيع معه أن أتحمل تبعه ما فيها من غموض. إن لك عندي يا عزيزتي لزي أخباراً سيئة، وهي أخبار لا أستطيع أن أؤجل الإفضاء بها إليك. ذلك أنه مهما خلا زواج مستر وكهام وأختنا المسكينة ليديا من الحكمة، فإننا الآن نرغب رغبة شديدة في أن نتأكد أن هذا الزواج قد تم فعلا. لقد تركت ليديا مذكرة قصيرة إلى مسز فورستر أشارت فيها إلى أنهما سيذهبان إلى جرتناجرين [1] ولكن دنى نطق بعبارة تتم عن اعتقاده بأن وكهام لا يريد قط أن يذهب إلى ذلك المكان ولا أن ستزوج

١) قرية في اسكتلندة قريبة جداً من الحد الفاصل بينها وبين إنجلترا، ولما كانت القوانين الاسكتلندية أسهل من القوانين الإنجليزية في مسائل الزواج فإن المحبين الفارين ثيراً ما يذهبان إليها ليتم زواجهما على الفور ومن غير إجراءات شكلية.

قط بليديا. وقد أعيد هذا القول على مسامع الكولونل فورستر فارتاع له من فوره وسار وراءهما، واستطاع أن يقتفي أثرهما، ولكنه لم يستطع أن يواصل عمله هذا إلى أبعد من لندن حيث اختفيا. وبعد أن بحث عنهما بكل وسيلة مستطاعة حمله قلبه الطيب على العودة إلى لنجبورن وإبلاغنا الخبر. إن مصيبتنا يا عزيزتي لزي لعظيمة جداً، وإن أمي وأبي ليظنان به أسوأ الظنون، أما أنا فلا أسيء به الظن إلى هذا الحد، ولعل هناك سبباً يدعوهما أن يتزوجا سراً في المدينة. إن أمي المسكينة مريضة بحق، أما أبي فإني لم أره في حياتي متأثراً كما هو الآن، وقد صب أبوانا جام غضبهما على كتي المسكينة لأنها أخفت عنهما صلة وكهام بأختها، ولكن المسألة مسألة ثقة، وليس للمرء أن يعجب من فعلها هذا. وإني ليسرني حقاً يا عزيزتي لزي أنك قد نجوت من رؤية بعض هذه المناظر. والآن وقد ذهبت الصدمة الأولى فهل لي أن أعترف لك بأني أتوق إلى عودتك؟ على أني لست من الأنانية بحيث ألح عليك في العودة إذا كان هذا عسيرا علي، وسيذهب والدنا إلى لندن في الحال ليحاول العثور على ليديا، ولكن وقع الكارثة الشديد عليه لن يمكنه من أن يسلك أحسن السبل في أي نهج ينهجه؛ ولهذا فإن مشورة خالي ومساعدته في هذه الروف سيكون لهما أعظم قيمة.

الفصل الثاني والأربعون

ولما فرغت إلزبث من قراءة الرسالة انتفضت قائمة من مقعدها وصاحت: «آه، أين خالي! أين هو؟» وهي شديدة الرغبة في تتبعه دون إبطاء. ولكنها حين وصلت الباب فتحة أحد الخدم وظهر أمامها مستر دارسي. وارتاع حين رأى وجهها الشاحب ومسلكها الدال على العجلة، وقبل أن يذهب عنه روعه إلى حد يستطيع معه الحديث صاحت من فورها: «معذرة، ولكنني مضطرة إلى أن أرتكك، إذ لا بد لي أن أعثر على مستر جاردنر في هذه اللحظة، وذلك لحاجتي إليه في عمل لا يحتمل التأخير».

وصاح هو وقد بدا عليه من الشعور أكثر مما بدا من الأدب: «رحماك اللهم! ماذا حدث؟»، ثم هدأ شعوره وقال: «لن أؤخر ذهابك دقيقة واحدة؛ ولكن اسمحي لي أو أسمحي للخادم أن يستدعي مستر جاردنر، فلست بحالة تمكنك من الذهاب، ولن تستطيعي أنت أن تخرجي إليه».

وترددت إلزبث، ولكن ركبتيها كانتا تصطكان من تحتها، ثم استدعت الخادم وناولته الرسالة. ولما غادر الحجرة جلست خائرة القوى، وبدا عليها الضعف الشديد حتى لم يستطع دارسى أن يتركها وحدها أو أن يمسك لسانه عن أن يقول لها في نغمة مشبعة بالرقة والعطف: «اسمحي لي أن

أدعو خادمتك. أليس هناك شيء تشر بينه ليسعفك في هذه الساعة؟ كقدح من نبيذ؟ آتيك بقدح من نبيذ؟ إنك مريضة جداً».

وأجابته وهي تريد أن تستعيد هدوءها: «لا! أشكرك، إني بصحة جيدة؛ وكل ما في الأمر أني قد ساءتني أخبار مروعة جاءتني من بيتنا».

وأجهشت بالبكاء وهي تقول هذا، وظلت بضع دقائق لا تقوى على النطق بكلمة أخرى. ثم واصلت حديثها آخر الأمر قائلة: «لقد تركت أختي الصغرى كل أصدقائها؛ لقد فرت، لقد ألقت بنفسها في أحضان- مستر وكهام؛ وليس لديها مال، وليس لديها ما يغر به- لقد فقدناها أبد الدهر».

وجمد دارسى في مكانه من فرط دهشته. وقالت هي بعدئذ: «وحين أذكر أنني كان في وسعي أن أمنع هذا! أنا التي كنت أعرف حقيقة أمره؛ ولكن سبق السيف العذل».

وتمتم دارسى ببعض كلمات تدل على عطفه، وأجابت إلزبث عن أسئلته بأن قصت عليه ما تعرف من تفاصيل الأمر. وبدا هو وكأنه لا يكاد يسمعها، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا، ويفكر تفكيراً عميقاً، وهو مقطب الجبهة، وعليه أمارات الجد. وفهمت إلزبث لساعتها ما يفكر فيه، وأخذت قواها تخور بعد أن تبينت ما في هذا العمل من دليل قاطع على ضعف أخلاق أسرتها، وما جللها ذلك العمل من عار ليس بعد عار. ولم يكن في وسعها وقتئذ أن تدهش أو تلوم، ولكن هذا الظرف كان بحيث

يجعلها تدرك ما في نفسها من رغبات، ولم تكن في يوم من الأيام لتشعر شعوراً صادقاً بأنها تستطيع أن تحبه كما شعرت في تلك الساعة التي كان فيها كل حب له لا يجديها نفعاً.

ولكن سرعان ما طغى على متاعبها الخاصة تذكرها أمر ليديا، فغطت وجهها بمنديل يدها، وذهب من عقلها كل ما عداه على الفور. وبعد صممت دام بضع دقائق نبهها إلى موقفها صوت رفيقها وهو يقول لها: «أخشى أن يكون هذا الحادث المشئوم سبباً في منع أختي من أن تحظى برؤيتك اليوم في بمبرلى».

«أجل! أرجو أن تتفضل بالاعتذار للآنسة دارسى بالنيابة عنا. وقل لها إن أموراً ذات بال تتطلب عودتنا إلى بيتنا في الحال، وأخف عنها حقيقة النبأ أطول وقت مستطاع».

ووافق من فوره على أن يفعل هذا، ثم غادر المكان دون أن يلقي عليها إلا نظرة وداع واحدة. وشعرت إلزبث وهو يغادر الحجرة بأنه ليس من المستطاع بعد تلك الساعة أن يتلاقيا مرة أخرى في جو من الصداقة كالجو الذي كان يسود لقاءهما وقتئذ، ثم استعادت في ذاكرتها ماضي معرفتهما كله، وما امتلأ به من عواطفها، وهي واختلافات، وتنهدت حسرة على ما تبدل من عواطفها، وهي عواطف كان من شأنها في هذه الساعة أن تشجع ذلك الأمل الذي كانا يرغبان من قبل في القضاء عليه.

وإذا كان شكر النعمة والاحترام أساسين قويين للحب، فإن تبدل عواطف إلزبث لا يعد وقتئذ خاطئاً أو بعيد الاحتمال. ومهما يكن من ذلك الأمر فقد نظرت إليه وهو يغادر المكان في آسفة على فراقه، وضاعف آلامها تفكيرها في هذه البادرة الأولى مما سوف سجر إليه مسلك أختها ليديا. أنها لم يكن لها أمل في أن وكهام يقصد بحق أن يتزوج بأختها. ولم تلاحظ هي في يوم من الأيام حين كانت الفرقة العسكرية في مريتن أن ليديا تميل إليه ميلاً خاصاً، ولكنها لم تكن تشك في أن ليديا لا تحتاج إلا إلى ما يشجعها على أن تتعلق بأي إنسان، فقد كانت تصطفي لنفسها هذا الضابط تارة وذاك تاروصة أخرى؛ ومع أنها لم تكن تظن أن ليديا فرت عامدة وهي لا تنتوي الزواج، فإنها كانت تعتقد رغم هذا أنها ستكون فريسة سهلة لرجل مخادع.

وكان مستر جاردنر وزوجته قد أسرعا بالعودة، وهما مرتاعان، وأفضت إليهما إلزبث في حدة بسبب استدعائهما، وكان لا بد لهما أن يتأثرا أشد التأثر من ذلك الخبر، وإن لم تكن ليديا في يوم من الأيام محببة إليهما. وبعد أن هدأت صيحات الدهشة والارتياع الأولى، وعدها مستر جاردنر من فوره بأن تقدم لها كل ما في وسعه من المعونة. وسرعان ما استقر الرأي على كل ما تستلزمه رحلتهم من استعداد.

وصاحت مسز جاردنر قائلة: «ولكن ماذا نفعل بالدعوة إلى بمبرلى؟».

فأجابت إلزبث قائلة: «لقد أخبرت مستر دارسى أننا لن نستطيع الوفاء بوعدنا. لقد انتهينا من هذا كله».

وأعادت مسز جاردنر في نفسها وهي تسرع إلى حجرتها لتعد العدة للسفر: «ما الذي فرغت منه كله؟ وهل بينهما من العلاقة ما يجيز لها أن تفضي إليه بجلية الخبر؟ ما أشد رغبتي في أن أعرف هذا!».

وكان لا بد من حزم الأمتعة وكتابة الرسائل إلى جميع أصدقائهم في لمبتن واختلاق المعاذير لرحيلهم المفاجيء. على أنه لم تمض إلا ساعة حتى تم كل شيء، ووجدت إلزبث نفسها جالسة في العربة تنطلق بها في طريقها إلى لنجبورن.

الفصل الثالث والأربعون

واجتازوا المسافة بأسرع ما يستطيعون، وناموا ليلة واحدة في الطريق، ثم بلغوا إلى لنجبورن في اليوم الثاني وقت العشاء.

وجذب منظر العربة أبناء جاردنر الصغار فوقفوا على درج البيت، وكانت دهشتهم وبهجتهم التي تلألأت من أجلها وجوههم هي تحيتهم الأولى للقادمين.

وقفزت إلزبث من العربة، وقبلت كل طفل من الأطفال قبلة عاجلة، وأسرعت إلى الردهة حيث ألتقت على الفور بجين، وكانت قد أقبلت إليها تجري من غرفة والدتها.

وحيتها إلزبث تحية ملؤها العطف، وعيناها مغرورقتان بالدمع، وسألتها من فورها هل جاء نبأ من الآبقين.

فأجابتها جين: «لم يأتنا بشيء بعد».

«وهل والدي في لندن؟».

«نعم فقد ذهب إليها يوم الثلاثاء».

«وهل كتب إليكن كثيراً؟».

«لم يكتب إلا مرة واحدة لينبئنا بوصوله وليرسل إليَّ عنوانه، ولم يزد على ذلك إلا قوله إنه لن يكتب إلينا مرة أخرى حتى يكون لديه شيء هام ينبئنا به».

«وأمنا– كيف حالها؟».

«إن أمنا بحال لا بأس بها، وإن كانت أعصابها شديدة الاضطراب، وهي لا تزال في الفراش، أما ميري وكتي فهما بحمد الله في أحسن حال».

وصاحت إلزبث: «وأنت– كيف حالك أنت؟ إنك مصفرة الوجه، ما أشد ما قاسيت!».

لكن أختها أكدت لها أنها على أحسن حال. وكان هذا الحديث يدور ومستر جاردنر وزوجته مشغولان بأطفالهما، فلما اقتربت الجماعة كلها منهما انقطع الحديث.

وذهبوا جميعاً إلى حجرة مسز بنت فاستقبلتهم بالطريقة التي توقعوا أن تستقبلهم بها، بدموع منهمرة، وعبارات الأسف، وطعن في سلوك وكهام الخبيث، وشكوى من آلامها وسوء معاملتها، وأخذت تلوم كل إنسان إلا من كانت سوء تنشئتها لأبنتها أكبر سبب بلا شك في أخطاء هذه الفتاة [٢].

٢) أي الأم نفسها.

وقالت: «لو أنني استطعت أن أذهب إلى بريتن مع أسرتي جميعها لما وقع هذا قط. ولكن عزيزتي ليديا المسكينة لم تجد من يعني بها. مسكينة طفلتي العزيزة! وها هو ذا مستر بنت قد سافر، وأنا أعرف أنه سيقاتل وكهام، وسُيقتل، وماذا يحدث لنا نحن بعدئذ؟ إن آل كلنز سيخرجوننا من هذا البيت قبل أن تبرد جثته في قبره، و"إذا لم تشفق علينا أنت يا أخي فلست أدري ماذا تكون عاقبة أمرنا».

وصاحوا كلهم محتجين على هذه الأفكار المروعة، وأخبرها مستر جاردنر أنه سيذهب إلى لندن مباشرة، ويقدم لمستر بنت كل ما يستطيعه من عون في بحثه عن ابنته.

وأجابته مسز بنت: «آه يا أخي العزيز، إن هذا بالضبط هو ما أرغب فيه أشد الرغبة، وأرجو حين تذهب إلى المدينة أن تكشف مكانهما حيثما يكونان، وإذا لم يكونا قد تزوجا قبل أن تجدهما فزوجهما ولا تجعلهما ينتظران حتى تأتيهما ملابس العرس، بل قل لليديا إنها ستعطي من المال ما تشاء لتشتري به هذه الملابس بعد الزواج. وأهم من هذا كله أن تمنع مستر بنت من القتال، وحدثه عن سوء حالي– وقل له إن عقلي يكاد يذهب من شدة الخوف، وإن جسمي كله يرتعد، وإن رأسي شديد الألم، وإن دقات قلبي مضطربة، وإني لا أذوق للراحة طعما بالليل أو بالنهار. وأبلغ ابنتي العزيزة ليديا ألا تصدر أية أوامر خاصة بملبسها قبل أن تراني، لأنها لا تعرف خير الحوانيت التي تبتاعها منها. آه يا أخي ما أكثر شفقتك! إني أعرف أنك ستحسن تصريف كل شيء».

ولم يسع مستر جاردنر إلا أن ينصحها بالاعتدال في آمالها ومخاوفها على السواء، وظل الحديث دائراً على هذا النحو حتى هيىء بالعشاء على المائدة، وتركاها لتعني بها مديرة البيت. ومع أن مستر جاردنر وزوجته كانا واثقين من أنه لا ضرورة حقة تدعو لملازمتها الفراش، فإنهما لم يحاولا قط أن يعارضا في رغبتها هذه، لأنهما كانا يعرفان أنها لم تؤت من الحكمة ما يكفي لحملهاعلى أن تمسك لسانها عن الكلام أمام الخدم وهم يخدمونهم على مائدة الطعام.

وانضمت إليهم في حجرة الطعام ميري وكتي وقد منعهما انشغالهما في حجرتيهما الخاصتين أن تظهرا قبل ذلك الوقت أمام القادمين. وقد جاءت إحداهما من بين كتبها وجاءت الأخرى من زينتها، وكانت كلتاهما هادئة كثيراً ولا يظهر عليها أي أثر للتغير، وإن كانت كتي قد صارت أكثر شكاية من مألوف عادتها، إما لفقدها أختها المحببة إليها أو لما صب عليها هي من غضب في هذه المسألة.

واستطاعت ابنتا مستر بنت الكبيرتان أن تجدا نصف ساعة تجتمعان فيه وحدهما لتتحدثا في الأمر حديثاً جدياً. وعرفت إلزبث أن سمعة وكهام السيئة قد أخذت تنتشر، فقد كان الكولونل فورستر يعتقد أنه شخص متهور مسرف، وقيل وقتئذ إنه غادر مريتن وهو مثقل بالدين.

«آه يا جين لو أننا لم نكتم السر إلى هذا الحد، ولو أننا قلنا ما نعرف عنه، لما حدث هذا».

«إنا لم نقصد فيما فعلنا إلا الخير».

ثم أطلعت جين مسز فورستر على خطاب ليديا الذي جاء به الكولونل معه، وها هو ذا نصه:

«عزيزتي هريت:

«ستضحكين حين تعرفين أين ذهبت، ولا يسعني أنا نفسي إلا أن أضحك من دهشتك في صباح الغد حين لا تجدينني. سأذهب إلى جرتنا جرين، وإذا لم تستطيعي أن تحرزي مع من ذهبت فلا بد لي أن أظن أنك بلهاء، ذلك أنه لا يوجد في العالم إلا شخص واحد أحبه، وهو ملاك بحق، ولم أكون سعيدة إلا معه، ولهذا لا تظني أن في فراري معه ضرراً ما. ولا حاجة لك بأن تخبري من في لنجبورن، إذا لم تشائي أن تخبريهم، لأن دهشتهم ستزداد حين أكتب إليهم وأوقع رسالتي باسم ليديا وكهام، وما أحسنها من فكاهة حين يكون هذا! أرجو أن تعتذري عني إلى برات، لأني سأخلف اتفاقي بأن أرقص الليلة معه. وسأرسل في طلب ملابسي حين أصل إلى لنجبورن؛ ولكني أحب أن تخبري الخادمة بأن تصلح خرقاً كبيراً في ثوبي الأزرق قبل أن تحزمه. أستودعك الله. بلغي حبي لمسز فورستر، وأرجو أن تشربي متمنية لنا رحلة طيبة.

صديقتك المحبة ليديا بنت»

ولما فرغت جين من قراءة هذه الرسالة صاحت إلزبث قائلة: ألا ما أقل عقلك يا ليديا! ما أقل عقلك! أي خطاب هذا الذي تكتبينه في تلك اللحظة! ولكن أقل ما يدل عليه أنها كانت حاجة في الغرض الذي ترمي إليه من رحلتها. مسكين يا أبي؛ لقد كان وقعه شديداً عليه!.

«لم أر إنساناً اهتز من هول صدمة كما اهتز هو. لقد ظل عشر دقائق كاملة لا يسيتطيع النطق بكلمة واحدة، وأما أمي فقد انتابها المرض في الحال، وساد الاضطراب المنزل كله».

وصاحت إلزبث قائلة: «آه يا جين! هل لنا خادم لم يعرف القصة كلها قبل أن ينقضي اليوم؟»

«لست أعرف، ولكني أرجو ذلك؛ غير أن اصطناع الحكمة في مثل ذلك الوقت من أصعب الأمور».

«إنك لا تظهر عليك علائم الصحة؛ لقد اضطررت أن تقاسي بمفردك كل ما سببه هذا العمل من قلق وانشغال بال».

«لقد أظهرت كتي وميري كثيراً جداً من الشفقة والرحمة، وكانتا تريدان من غير شك أن تتقاسماني كل متاعبي، ولكن كتي ضعيفة البنية وميري تجهد نفسها في الدرس، ويجب ألا نزعجها في أوقات راحتها، وجاءت إلينا خالتنا فلبس بعد أن ذهب والدنا وأقاربنا وواستنا كثيراً،

وكانت السيدة لوكاس رحيمة بنا أعظم الرحمة، فقد جاءت إلينا مشياً على الأقدام لتظهر لنا عطفها وتقدم لنا معونتها».

وصاحت إلزبث: «ليتها بقيت في دارها؛ ربما كانت حسنة النية، ولكن الإنسان إذا حلت به مثل هذه الكارثة كان في وسعه أن يرى غير قليل مما يضمره جيرانه».

الفصل الرابع والأربعون

وبدت مريتن كلها وكأنها تتوق إلى التشهير بالرجل الذي أوشك أن يكون من قبل في رأيها ملاكا من نور؛ وقيل عنه إنه مدين لكل تاجر في ذلك المكان، وإنه أحب معظم بنات أولئك التجار؛ وجهر كل إنسان بأنه أخبث شاب في العالم كله، وبدأ كل واحد يعتقد أنه كان على الدوام لا يثق بطيبته الظاهرة.

وترددت مسز فلبس على آل بنت وقصدها فيما تزعم أن تفرج كرب الأسرة، ولكنها لم تأت مرة إلا لتضرب لها مثلا جديداً على سوء سلوك وكهام، ولهذا فإنها قلما كانت تغادر المكان من غير أن تترك من فيه وهن أشد كآبة مما يكن قبل مجيئها إليهن.

وكانت كل أيام أسرة لنجبورن في هذه الأثناء أيام قلق، ولكن أشد ساعات اليوم قلقا هي الساعة التي كن ينتظرن فيها وصول البريد. غير أن أخباراً ذات بال لم تصل من لندن، وإن كان خطاب قد جاء باسم أبيهن من جهة أخرى، من مستر كلنز. وكانت جين قد تلقت من أبيها أمراً بأن تفض كل ما يأتي بأسمه من رسائل في أثناء غيابه، ولذلك قرأت الخطاب. وكانت إلزبث تعرف ما في وسائله من غرابة على الدوام، ولذلك قرأته هي الأخرى. وهذا هو نصه:

«سيدي العزيز:

أرى من واجبي، بحكم ما بيننا من أواشح القربى وبحكم مركزي في الحياة، أن أعطف عليك في محنتك الحاضرة، وهي محنة لا بد أن تكون من أقسى المحن، لأن منشأها أمر لا يقوى الزمن مهما طال على أن يمحو أثره. ولو أن ابنتك قد ماتت لكان موتها نعمة إذا قيس إلى هذه الكارثة. ومما يزيد من وقعها أن هناك من الاسباب ما يحمل على الظن بأن هذه المسلك الذي سلكته ابنتك كان سببه نقص تربيتها المنزلية، وإن كنت في الوقت نفسه أميل إلى الظن بأن أخلاقها سيئة بطبيعتها. ومهما يكن من هذا الأمر فإن حالك يرثى لها كثيراً، وهذا رأى لا تشترك معي فيه زوجتي فحسب بل تشترك فيه أيضاً السيدة كترين وابنتها، وهما متفقتان معي على أن هذه الخطوة غير الموفقة سيكون لها أثر سيء في حظ بناتك الأخريات جميعهن، وهل في الناس من يرضي بأن تكون له صلة بأسرة هذا شأنها؟ وهذا الاعتبار يحملني على التفكير، ونفسي راضية كل الرضا، في حادثة معينة وقعت في شهر نوفمبر الماضي، ولو أنها قد انتهت على غير ما انتهت إليه لكان لي الآن نصيب مما أصابكم من أحزان وما ثلوثتم به من عار. ونصيحتي لك يا سيدي العزيز أن تطرح ابنتك العاقة وراء ظهرك إلى أبد الدهر، وأن تتركها لتنال جزاء خبثها.

ولا زلت يا سيدي العزيز إلخ».

واستولى اليأس على مستر بنت آخر الأمر لعدم توفيقه فيما حاوله من اقتفاء أثر ابنته، ولذلك أنصاع إلى ما طلبه إليه أخو زوجته، وهو أن يعود إلى أسرته ويترك له أن يفعل ما يراه صالحا. ولما نبئت مسز بنت بهذا لم تظهر من الرضا ما كانت بناتها يتوقعنه منها.

«ما هذا؟ أيأتي إلى المنزل دون أن تكون معه ليديا المسكينة؟ ومنذا الذي يقاتل مستر وكهام، ويرغمه على الزواج بها إذا عاد هو؟».

ولما كانت مسز جاردنر قد أخذت تتوق إلى العودة إلى منزلها، فقد غادرت هي وأطفالها لنجبورن في العربة التي أرسلت لتأتي بمستر بنت إلى منزله. وغادرت البيت دون أن تقل حيرتها من أمر إلزبث وصديقها في دربي شير عما كانت عليه من قبل.

وعاد مستر بنت ولم يفارقه هدوؤه المألوف. وظل صامتا لا ينطق إلا بالقليل، ولم يقل شيئاً عن الأمر الذي أبعده عن بيته، ومضى بعض الوقت قبل أن تجرؤ بناته على التحدث إليه فيه.

ولم تجسر إلزبث على طرق هذا الموضوع إلا بعد الظهر، ولما أبدت عطفها عليه قال لها: «لا تتحدثي بشيء عن هذا، فمنذ الذي يتألم له غيري؟ لقد كان هذا من عملي، ويجب عليَّ أنا أن أقاسي عاقبته».

ثم صمت قليلا وواصل حديثه قائلا: «لست غاضبا عليك، لأنك كنت على حق فيما نصحتني به في شهر مايو الماضي».

ثم قطعت عليهم جين حديثهم، وقد جاءت لتأخذ لأمها الشاي. وقال هو : «إن هذا احتفال يفيد الإنسان! وسأفعل هذا الفعل نفسه في يوم آخر، سأجلس في حجرة كتي وأحدث من الاضطراب كل ما أستطيع – أو لعلي أستطيع أن أرجئه حتى تقر كتي».

وقالت كتي بنغمة الشاكية: «لن أفر يا والدي؛ ولو قدر لي أنا أن أذهب إلى بريتن لكان سلوكي خيراً من سلوك ليديا».

أتذهبين أنت إلى بريتن! لو أنني أعطيت خمسين جنيهاً لما أمنت عليك أن تقتربي منها! لا يا كتي؛ لقد تعلمت على الأقل أن أكون حذراً، وستشعرين بأثر هذا الحذر. لن يدخل ضابط أياً كان منزلي بعد اليوم. بل لم يمر أحد منهم مجرد مرور في هذه القرية، وحفلات الرقص محرمة عيبلكن إلا إذا راقصت إحدى أخواتك، ولن تخرجي من المنزل إلا بعد أن تثبتي أن في وسعك أن تقضي عشر دقائق من كل يوم وأنت عاقلة رزينة».

وأخذت كتي هذه التهديدات جميعها مأخذ الجد وشرعت تبكي وقال هو: «حسن؛ حسن؛ لا تبتئسي، وإذا ظللت بنتاً صالحة طوال العشر السنوات المقبلة، فسآخذك إلى عرض للجنود في آخر هذه السنين العشر».

الفصل الخامس والأربعون

وبينا كانت جين وإلزبث تمشيان في الحديقة خلف البيت بعد يومين من عودة مسز بنت وأنا مديرة البيت مقبلة نحوهما.

وقالت لجين: «عفوا يا سيدتي إذا قطعت عليكما ما أنتما فيه، ولكنني كنت أرجو أنكما قد تلقيتما أخبارا من المدينة فجرؤت على المجيء لأسأل عنها».

«ماذا تقصدين بهذا؟ إننا لم تصل إلينا أخبار من المدينة».

وصاحت مديرة المنزل: «ألا تعلمين يا سيدتي العزيزة أن خطابا قد جاء بالبريد العاجل من مستر جاردنر من نصف ساعة مضت؟».

وأسرعت الفتاتان وقد بلغ من شوقهما إلى الوصول إلى المنزل أنهما لم تجدا لديهما وقتا للحديث. واخترقتا الردهة وهما تجريان إلى حجرة الإفطار، ث خرجنا منها إلى المكتبة ولكنهما لم تجدا أباهما في واحدة منهما. وأوشكتا أن تبحثا عنه في الدور العلوي مع أمهما ولكنهما التقيا بكبير الخدم فقال لهما:

«إن كنتما يا سيدتي تبحثان عن سيدي فهو يسير على قدميه نحو الأجمة الصغيرة».

وخرجتا من البيت مرة أخرى على الفور، وأخذتا تعدوان فوق الخميلة وراء أبيهما. ولم تكن جين سريعة العدو كإلزبث، ولذلك لم تلبث أن أبطأت في سيرها، أما أختها فقد لحقته وهي لا تكاد تقوى على التنفس من فرط التعب، ونادته بقوة:

«أي أبي، ماذا لديك من الأخبار؟ أطيبة هي أم غير طيبة؟».

وأجابها وهو يخرج الخطاب منجيبه: «وأي خبر طيب يمكن أن ننتظره؟ ولكن لعلك تحبين أن تقرئيه».

وانتزعت إلزبث الخطاب من يده، وفي هذه اللحظة أدركتها جين وقال لها والدهما: «إقرئي الخطاب بصوت عال».

شارع جريس تشريش[٣].

في يوم الأثنين ٢ أغسطس.

«أخي العزيز

«وأخيرا أستطيع أن أبعث إليك ببعض الأخبار. لقد كشفت ابنة أخي هي والشاب، ولم يتزوجا بعد، ولم أتبين أي شاهد على أنهما يعتزمان الزواج، ولكنك إذا رضيت بأن توفي بالوعود التي جرؤت على أن أقطعها لهما بالنيابة عنك، فإني أرجو إلا يمضي وقت طويل قبل أن يتزوجا. وكل ما

٣) شارع جريس تشرتش أحد شوارع حي الأعمال في لندن.

يجب عليك في هذه الحال هو أن تتعهد لابنتك تعهدا قانونيا بأن يكون لها نصيبها كسائر أخواتها في الخمسة الألاف من الجنيهات الموصي بها لبناتك بعد موتك وموت أختي، وأن تتعهد فضلا عن هذا بأن ترتب لها في أثناء حياتك مائة جنية في كل عام. هذا وليست حال مستر وكهام ميئوسا منها كما كان يظن، ويسرني أن أخبرك أنه سيكون لديه قليلمن المال يبقى لابنتنا حتى بعد أن تؤدي ديونه. وليس ثمة حاجة مطلقا تدعو لمجيئك إلى لندن لأني سأقدم لمحاميك كل ما يلزمه من التفاصيل لتحرير العقد. فأرسل إلي! بردك على هذا بأسرع ما تستطيع. وقد رأينا أنه يحسن أن تتزوج ابنتنا من هذا الدار، وأرجو أن توافق على هذا الرأي.

المخلص ألخ.

إدورد جاردنر.

«وهل رددت على هذا الخطاب؟».

فأجاب: «إني أكره كثيرا أن أرد عليه، ولكن لابد من الرد».

قال هذا ثم عاد مع ابنته وسار نحو البيت.

وقالت إلزبث: «وهل لي أن أسأل؟ ولكني أظن أنه يجب أن يوفي بهذه الشروط، أليس كذلك؟».

«أن يوفي بها! إني لشديد الخجل لأنه طلب هذا القدر القليل».

«ولا بد أن يتزوجا! ومع هذا فأي رجل هو!».

«نعم، نعم، وليس ثمة شيء غير هذا يمكن عمله. لكن هناك شيئين أنا شديد الرغبة في معرفتهما– أولهما مقدار ما دفعه خالك من المال ليصل به إلى هذه النتيجة؛ والثاني كيف أستطيع أن أرد إليه ما دفعه؟».

وصاحت جين قائلة: «المال! خالي! ماذا تعني بهذا يا سيدي؟».

«الذي أعنية أنه لا يوجد إنسان مالك لقواه العقلية يتزوج ليديا بهذا الإغراء الضئيل، وهو مائة جنيه في العام مادمت حيا، وخمسون جنيها بعد وفاتي».

وقالت إلزبث: «هذا حق لا شك فيه، وإن لم يكن قد خطر ببالي من قبل. تؤدي ديونه، ويبقى بعد ذلك شيء له! لا شك أن هذا من صنع خالي. ما أكرمه من رجل وما أطيب قلبه! إن مبلغاً قليلاً من المال لا يمكن أن يؤدي إلى هذا كله!».

وقال أبوها: «لا؛ إن وكهام يكون إنساناً أبله لو قبلها بأقل من عشرة آلاف جنية ببنس واحد».

«عشرة آلاف جنية! لا قدر الله! وكيف يستطاع الوفاء بنصف هذا القدر؟».

ولم يحر مستر بنت جواباً، وظللنا جميعاً صامتين غارقين في التفكير حتى وصلنا إلى البيت، ثم ذهب الوالد إلى المكتبة ليرد على الخطاب.

وصاحت إلزبث قائلة بعد أن صارت هي وأخواتهاوحدهن: «وسيتزوجان حقاً! ألا ما أغرب هذا! ومع أن فرصة تمتعها بالهناءة قليلة، ومع أن أخلاقه سافله، فإنا مرغمون على أن نبتهج! آه يا ليديا!».

وخطر للبنتين وقتئذ أن أمهما في أغلب الظن لا تزال تجهل كل الجهل ما قد حدث. ومن أجل هذا ذهبتا لتستأذنا أباهما في أن تطلعاها عليه. فأجابهما بكون هدوء دون أن يرفع رأسه عن الرسالة التي كان يكتبها:

«افعلا ما يروق لكما».

«وهل تأذن لنا بأن نأخذ خطاب خالنا لنقرأه لها».

«خذا ما تشاءان وأخرجا من هنا».

وبعد أن هيأن ذهن مسز بنت قليلاً لسماع أخبار سارة، قرأنا عليها الخطاب بصوت عال؛ ولم يكن في وسع أمهما أن تملك حواسها، فقد كاد قلبها يطير فرحاً بعد الجمل القليلة الأولى، ولم يقلق بالها أي خوف على سعادة ابنتها، ولم يضع من قدرها في عينها هي نفسها تذكرها سوء سلوكها.

وصاحت: «تلك أنباء سارة حقاً! ستتزوج وهي في السادسة عشرة! ما أعظم شوقي إلى رؤيتها ورؤية عزيزي وكهام أيضاً! ولكن الملابس، ملابس العرس! سأكتب إلى أختي جاردنر عنها في الحال. دقي الجرس يا كتي واستدعي الخادمة. سألبس ملابسي على الفور، سأذهب إلى مريتن بعد أن أبس مباشرة، وأبلغ أختي فلبس هذا النبأ السار، وسأعرج في عودتي على السيدة لوكاس والسيدة لنج».

ثم أخذت تطلع الخادمة على هذا النبأ، وشرعت هذه من فورها تعبر عن سرورها. وتلقت إلزبث منها التهنئة كما تلقتها سائر أخواتها، ثم ملت هذا السخف فآوت إلى حجرتها حتى تستطيع أن تفكر بكامل حريتها.

الفصل السادس والأربعون

طالما تاقت نفس مستر بنت قبل هذا الوقت الذي نتحدث عنه من حياته أن أن لو استطاع أن يقتصد جزءاً من دخله في كل عام بدل أن ينفقه جميعه، وذلك لكي يمد به بناته ويمد به زوجته إذا عاشت بعده. والآن أصبحت هذه الرغبة أشد مما كانت في أي وقت مضى. ولو أنه أدى واجبه هذا لما كانت ليديا الآن مدينة إلى خالها بما يستطاع ابتياعه لها من مقام أو مال.

وكان مستر بنت في أول عهده بالزواج يرى أن الاقتصاد لا فائدة منه على الإطلاق؛ وذلك لإعتقاده أنه سيرزق ولداً بطبيعة الحال، وحينئذ يجب الولد متى بلغ سن الرشد من حبست عليه ثروة مستر بنت، وبهذا تنال أرملته وأطفاله الآخرون نصيبهم من الثروة. ولكن حدث أن جاء مستر بنت إلى هذا العالم بخمس بنات متتابعات ولما يأت الولد. ثم يئس أخيراً من مجيئه، وكان أوان البدء في الاقتصاد قد مضى. وكانت مسز بنت بطبيعتها مسرفة في المال، ولم يمنعها هي وزوجها أن تنفقا أكثر من دخلهما إلا حب زوجها في ألا يكون كلاًّ على غيره.

وكان قد رتب لمسز بنت وأطفالها بمقتضى عقد الزواج خمسة آلاف جنيه، ولكن النسبة التي يقسم بها نصيب البنات بينهن ترك أمرها لإدارة الوالدين وحدهما. وتلك مسألة كان في الاستطاعة تقريرها الآن بالنسبة

لليديا على الأقل، ولم يتردد مستر بنت في قبول ما اقترحه عليه صهره. ولم يكن قد ظن في يوم من الأيام أن هذه المسألة يمكن أن تسوى ولا تكلفه إلا العناء القليل. فالجنيهات المائة التي سيؤديها إلى ابنته وركهام لا تكاد تنقص من دخله السنوي عشرة جنيهات؛ ذلك أن نفقات ليديا انت تستنفد هذا المبلغ تقريباً إذا حسبنا ما تتكلفه من مأكل ومشرب ومصروف يد والهدايا المستمرة التي كانت تهديها إليها والدتها نقداً.

ولهذا كتب إلى مستر جاردنر يبلغه موافقته وشكره، ولكنه لم يكتب شيئاً إلى ليديا لشدة غضبها منها.

وكان قد قضى أربعة عشر شهراً على نزول مسز بنت إلى الطابق الأسفل، ولكنها في هذا اليوم السعيد اتخذت مقعدها مرة أخرى على رأس المائدة وهي مغتبطة أغد الاغتباط. فلم يكن ثمة شيء من الخجل يفسد عيلها ما نالته من الظفر. وكانت كل أفكارها متجهة إلى الملابس والعربات والخدم والحصول على بيت يتسع لليديا. وسمح لها زوجها أن تتحدث دون أن يقاطعها طالماكان الخدم حاضرين، فلما أن ابتعدوا قال لها: «اعلمي يا مسز بنت، قبل أن تأخذي لابنتك هذه البيوت كلها أو واحداً منها، أنها لن يسمح لها قط بدخول هذا البيت على الأقل».

وأعقب هذا القول نزاع طويل، ولكن مستر بنت ثبت على رأيه، وسرعان ما شجر نزاع آخر؛ ورأت مسز بنت، وقد استولى عليها الرعب والعجب، أن زوجها لن يدفع بئساً واحداً لشراء ملابس لابنته، وأعلن

أنها لن تنال منه في هذه المناسبة أي دليل على عطفه. وآلم مسز بنت ما سوف يلحق ابنتها من العار بسبب حاجتها إلى الملابس الجديدة أكثر مما آلمها ذلك العار الذي يسربلها بسبب الظروف التي أثمرت هذا الزواج.

وشعرت إلزبث وقتئذ بالأسف الشديد لأن وقع المصيبة عليها ساعة علمت بها قد جعلها تفضي إلى مستر دارسى بما خالجها من الخوف على أختها، وذلك لأن زواجها سيغطي الآن على ما ارتكبته من الخطأ ويخفيه إلا عمن شهده بعينيية. نعم إنها كانت تعلم أن في وسعها أن تأتمنه على هذا السر، ولكنها في الوقت نفسه قد أذلها وأحزنها أن يعرف هو نفسه من بين الناس كلهم ما لحق أسرتها من العار.

ولم تكن تشك في أن رغبته في كسب احترامها لم يبقى لها أثر بعد هذه الضربة القاضية؛ وأصبحت الأن تتمنى أن يحسن الظن بها في الوقت الذي لم يعد لها رجاء في أن تفيد شيئاً من هذا الظن الشيء؛ وكانت تتوق إلى أن تسمع أخباره في الوقت الذي لم يكن فيه لديها أقل احتمال لأن تعرف شيئاً عنه، وأصبحت واثقة من أنها تكون سعيدة بزواجه في الوقت الذي لم يبق فيه أمل ما في أن تلتقي به.

وكثيراً ما قالت لنفسها إن نصره سيكون بلا شك نصراً مؤزراً إذا عرف أنها تقبل الآن وهي شاكرة مغتبطة ذلك العرض الذي رفضته بازدراء وكبرياء من أربعة أشهر لا أكثر!

وبدأت وقتئذ تدرك أنه هو بعينه الرجل الذي يوائمها أشد الموائمة بفضل أخلاقه وكفايته، وأن اقترانه بها كان فيه من غير شك الخير لهما جميعاً؛ ذل أن ما ف طباعها من يسر ومرح قد يلطف من عقله ويصلح من طباعه، وأنها هي قد تستفيد فوائد عظيمة الشأن من حكمته وعلمه ومعرفته بالعالم.

الفصل السابع والأربعون

وجاء يوم عرس أختهن، وكانت جين وإلزبث قد ألحتا على أبيهما إلحاحاً، فيه الجد كل الجد ولكن فيه أيضاً الرفق، أن تستقبلها هي وزوجها في لنجبورن بعد أن يتم هذا الزواج، حتى قبل أخيراً أن ينزل على رأيهما. واتفق ألا يبقيا في البيت إلا زمناً يسيراً لأن مساعي قد بذلت لنقل وكهام إلى فرقة عسكرية أخرى في شمال إنجلترا حيث يستطيع أن يبدأ حياة جديدة.

وأرسلت العربة للقائهما، على أن يعودا فيها قبيل وقت العشاء. وكانت ابنتا بنت الكبيرتان تخشيان مجيئهما كل الخشية.

ثم جاءا، واجتمعت الأسرة في حجرة الإفطار لاستقبالهما، وطفح وجه مسز بنت بشراً وابتساماً حين وصلت العربة إلى باب البيت، وظل زواجهما ثابتاً رزيناً طوال الوقت، أما بناتها فقد بدت عليهن الرهبة والقلق وعدم الاطمئنان.

وسمع صوت ليديا في الردهة، وفتح لها الباب، وأسرعت إلى الحجرة، وتقدمت أمها فعانقها وحيتها وهي فرحة، ومدت يدها وعلى ثغرها ابتسامة العطف إلى وكهام، وكان قد أقبل في إثر زوجته.

واتجها بعدئذ إلى مستر بنت، ولكن استقباله لهما لم يكن فيه من الود بقدر ما كان في استقبال زوجته، فقد كان مظهره مظهر الجد، ولم يكد ينطق بكلمة. والحق أن ما بدا على الزوجين الشابين من ثقة وعدم اكتراث كان يكفي في حد ذاته لأن يغضبه. واشمأزت إلزبث منهما، وحتى حين نفسها آلمها ما رأت منهما أشد الألم.

أما ليديا فقد كانت هي ليديا بعينها لم يتغير فيها شيء، لم تذلل، ولم تستح، بل بقيت عجاجة، صاخبة، لا تخشى شيئاً. واتجهت إلى أخواتها واحدة بعد واحدة تطلب إليهن أن يهنئنها بزواجها، وظل وكهام يبتسم طوال الوقت ويغمر الكل بأدبه الهادىء الظريف، وانطلقت العروس وأمها تتباريان في سرعة الحديث.

وصاحت ليديا: «وتصوروا أنه لم يمض على ذهابي إلا ثلاثة أشهر! وما من شك في أني لم أكن أظن أني سأتزوج قبل أن أعود، وإن كنت قد ظننت أن زواجي سيكون موضعاً للفكاهة إذا تم».

ورفع أبوها عينه إليها، ونظرت إليها إلزبث نظرة لها مغزاها، ولكنها واصلت حديثها في مرح: «أي أمي! هل يعرف أهل مريتن في هذا اليوم أني تزوجت؟ لقد كنت أخشى ألا يعرفوا، ولهذا فإني وضعت يدي على إطار نافذة العربة ونحن نخترق هذه البلدة حتى أهلها خاتم الخطبة».

وانتقلت ليديا إلى يمين أمها وهم يجتازون الرهة في طريقهم إلى حجرة العشاء، وكانت شديدة الرغبة في أن تظهر اعتدادها بنفسها، وقالت

لأختها الكبرى: «إني الآن أحل محلك يا جين، ويجب أن تتأخري في الصف عما كنت، لأنني الآن امرأة متزوجة».

ثم قالت لأمها بعد العشاء: «الآن يا أماه، ما رأيك في زوجي؟ أليس هو رجلاً جذاباً؟ لست أشك في أن أخواتي لا بد أن يحسدنني عليه، وكل الذي أرجوه أن ينلن نصف نا نلت من حظ سعيد. إن عليهم أن يذهبن جميعاً إلى بريتن، فهذا هو المكان الذي يحصلن فيه على الأزواج، أو فلتأتن جميعاً لزيارتنا في شمال البلاد؛ فستقام هناك في اعتقادي بعض حفلات الرقص، وسأعني بأن أجد لأخواتي من يراقصهمن من خير الرجال، فإذا سافرتم بعد ذذلك كان في وسعكم أن تتركوا منهن واحدة أو اثنتين، وفي وسعي أن أقول إني سأزوجهما قبل أن ينقضي فصل الشتاء».

وردت عليها إلزبث بقولها: «إني أشكر لك نصيبي من هذا الجميل، ولكني لا أحب كثيراً طريقتك في الحصول على الأزواج».

ووجدت إلزبث أن حب وكهام لليديا هو بعينه ما كانت تتوقعه، أي أنه لم يكن يعادل حب ليديا له. وحدثتها نفسها بأن الباعث على فرارهما معا هو قوة حبها له لا حبه لها، وأن السبب الأكبر في مغادرته بريتن كان هو الفرار من ديونه، وإن لم يكن هو الشاب الذي لا يغتنم فرصة تتاح له للحصول على رفيق.

وكانت ليديا مغرمة به إلى أقصى حد، فقد كانت تدعوه عزيزها وكهام في كل مناسبة، ولم يكن ثمة أحد ينافسه، وكان ما يعمله هو خير ما يمكن عمله في العالم كله.

وبينما هي جالسة مع أختيها الكبيرتين في صباح يوم من الأيام بعد قدومها هي وزوجها بزمن قليل قالت لإلزبث.

«إني لم أصف لك أنت يا لزي حفلة زفافنا، فإنك لم تكوني حاضرة وأنا هذه الحفلة لغيرك، ألست تتوقين إلى أن تسمعي كيف تمت هذه الحفلة».

وأجابت إلزبث بقولها: «في الحق أني غير راغبة. وأظن أن ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع مهما يمكن قليلا، لا يمكن أن يكون أقل من الواجب».

«ما هذا! ما أعجبك! ولكن من واجبي أن أخبرك كيف سارت الحفلة. أقبل يوم الزفاف وكنت أنا منفعلة، وكنت أخشى كما تعلمين أن يحدث ما يؤخرها. وكانت هناك زوجة خالي طوال الوقت الذي كنت أرتدي فيه ملابسي، تعظني وتنطلق في الحديث كأنما كانت تقرأ موعظة. على أنني لم أسمع كلمة واحدة من كل عشر كلمات قالتها، لأني كنت اسأل نفسي هل يزف عزيزي وكهام في سترته الزرقاء .

«وفي الساعة اليت وصلت فيها العربة إلى الباب استدعى خالي لعمل من الأعمال، واستولى عليّ الخوف، ولم أدر ما أفعل، لأن خالي هو الذي كان سيقدمني إلى زوجي، وإذا تأخر فإن زواجنا لم يكن يستطاع إتمامه في اليوم كله. على أني تذكرت بعدئذ أن لا حاجة تدعو إلى تأجيل العرس، لأن مستر دارسى يمكن أن يقوم بهذا العمل بدل خالي».

وأعادت إلزبث قول أختها «مستر دارسى» وهي مندهشة غاية الدهشة «نعم! عليك أن تعرفي أن الترتيب الموضوع كان يقضي بأن يجيء هو مع وكهام. تا الله! لقد نسيت كل النسيان! لقد وعدت بشرفي إلا أذكر هذا، واتفقنا على أن يبقى سراً مطوياً».

وقالت إلزبث وهي تتحرق شوقا إلى معرفة هذا السر: «أما والحالة هذه فإنا لن نلقي عليك أسئلة».

وقالت ليديا: «أشكر لك هذا، لأنك لو سألت، لأخبرتك دون شك بكل شيء، ولغضب وكهام من ذلك أشد الغضب».

ووجدت إلزبث في هذا إغراء شديداً لها على أن تسأل، ولهذا فإنها اضطرت إلى أن تجعل السؤال في غير مكنتها بالفرار من أختها.

ولكنها كان يتعذر عليها ألا تطلب معلومات عن هذه النقطة. لقد حضر مستر دارسى عرس أختها! فماذا عسى أن يكون سبب حضوره؟ وسرعان ما أمسكت بقطعة من الورق وكتبت رسالة قصيرة إلى زوجة خالها

تطلب إليها فيه بيانا عن هذه المسألة إذا كان في الإمكان إعطاء هذا البيان دون إفشاء سر أئتمنت عليه.

وأضافت إلزبث إلى هذا قولها لنفسها: «وإذا لم يكن ذلك ممكنا، ولم تخبريني يا زوجة خالي عما أسأل عنه بطريقة شريفة، فإني سأضطر من غير شك إلى الاحتيال لمعرفة الحقيقة».

الفصل الثامن والأربعون

وسر إلزبث أن تتلقى رداً عاجلاً على رسالتها. ولم تكد تتسلم الرد حتى أسرعت إلى الأجمة الصغيرة حيث مظنة وجود ما يقطع عليها القراءة أقل مما هي في غيرها من الأماكن.

شارع جريس تشرتش

في ٦ سبتمبر

«ابنة أختي العزيزة

«تلقيت الآن رسالتك، ولا يسعني إلا أن أقر بأنني دهشت لطلبك. على أنني أرجو ألا تغضبي، لأن كل ما أقصده أني لم أكن أتصور أن هذه المعلومات لازمة لك. وليست دهشة خالك بأقل من دهشتي، ولا شيء غير اعتقاده بأن لك شأناً في الأمر كان يجيز له أن يفعل ما فعل. أما إن كنت تجهلين الأمر حقاً فإني لا يسعني إلا أن أشرحه لك.

«في اليوم الذي عدت فيه من لنجبورن فاجأ مستر دارسى خالك بزيارة لم يكن قط بتوقعها، وانفرد به عدة ساعات. وكان سبب مجيئه أن يخبر مستر جاردنر بأنه عرف مكان أختك ومستر وكهام، وأنه تحدث إليهما. والذي أستطيع أن أستخلصه أنه غادر دربى شير بعد مغادررتنا

إياها بيوم واحد لا أكثر، وأنه جاء إلى لندن وفي عزمه أن يبحث عنهما. وكان من كرم خلفه أن عزا عمله لشعوره بأن تبعة الأمر كله واقعة عليه، وذلك لأنه لم يعلن في مريتن ما كان يعرفه عن حقارة وكهام في العام الماضي. وكان ينحو باللائمة على كبريائه الذي منعه أن يفعل هذا.

ويلوح أن ثمة سيدة كانت تعمل مربية للآنسة دارسى، وأنها فصلت من عملها لسبب قوي لم يذكره، واتخذت بعد فصلها بيتاً لها في لندن. وكانت تكسب عيشها بتأجير مساكن فيه لمن يريد، وكان مستر دارسى يعرف ما بينهما وبين وكهام من صداقة فذهب إليها.

واستطاع بشيء من الصعوبة أن يعرف منها محل إقامته. وحاول أول الأمر أن يقنع ليديا بالعدول عن موقفها المعيب والعودة إلى أصدقائها، ولكنه وجدها مصممة كل التصميم على البقاء حيث كانت، ذلك أنها كانت واثقة في أن وكهام سيتزوجها يوماً من الأيام، ولم يهمها متى يكون هذا اليوم. أما الرجل نفسه فقد بدا أنه لم يكن يقصد شيئاً من هذا، بل كان لا يزال يرجو أن يثري بالزواج في بلد آخر غير انجلترا؛ إلا أنهما اتفقا أخيراً اتفاقاً أرضى الطرفين.

وكان زائرنا مستر دارسى رجلا صلب الرأ فلم يكن ثمة شيء يراد فعله إلا كان هو فاعله، وإن كنت لا أشك في أن خالك كان مستعداً كل الاستعداد لأن يسوي بنفسه الأمر كله. وأشتد النقاش بينهما طويلا، ولكن خالك اضطر آخر الأمر أن يخضع له. واتفق على أن تؤد ديون وكهام، وأن يقرر لها ألفان آخران من الجنيهات، وأن يحصلا له على منصب طيب في الجيش.

وقد يكون هناك بعض الصدق فيما أفضى به مستر دارسى من الأسباب التي حملته على أن يضطلع بدور الرجل المحسن في هذه المسألة، ولكني أؤكد لك يا عزيزتي لزي أن خالك لم يكن ليسلم له بما أراد، بالرغم من كلامه الجميل كله، لولا أننا نعتقد أن له مصلحة أخرى في هذه المسألة. فهل يسوؤك كثيراً إذا انتهزت هذه الفرصة لأعبر لك عن عظم حبي له؟ ذلك أن سلوكه وإدراكه وآراءه كلها تبعث السرور في نفسي، وكل ما ينقصه هو شيء قليل من المرح أكثر مما به، وذلك الشيء قد تعلمه له زوجته إذا تزوج بعد ترو وبصيرة. ولقد ظننته رجلاً كتوماً، فهو قلما نطق باسمك، ولكن يبدو أن كتمان السر هو طراز هذه الأيام، وأرجو أن تعذريني إذا كنت قد قلت فوق ما يجب أن أقول، ولكني أرجو ألا يصل عقابك لي إلى حد حرماني من ب.

«بيد أني بينغي لي ألا أكتب أكثر من هذا، فإن الأطفال ينادونني من نصف ساعة.

خالتك المحبة: م. جاردنر»

واضطربت نفس "إلزبث مما حوته هذه الرسالة. أيفعل دارسى هذا كله من أجل أمرأة لا يسعه إلا أن يحتقرها؟ ومن أجل الرجل الذي يرغب أشد الرغبة في الابتعاد عنه؟ وحدثتها نفسها فعلا أنه قد فعل هذا من أجلها هي. وما كان أكثر حزنها من كل ما استرسلت فيه من شعور غير جميل نحوه! لقد ذلت هي ولكنها كانت تفخر به، وقرأت ثناء زوجة خالها عليه المرة بعد المرة.

وقلما كانت تكفيها القراءة ولكنها مع ذلك سرتها.

الفصل التاسع والأربعون

وسرعان ما حل يوم رحيل الزوجين الشابين، واضطرت مسز بنت إلى الاستسلام لهذا الفراق.

وصاحت قائلة: «اكتبي إليّ كثيراً يا ليديا».

«سأكتب إليك كلما استطعت، ولكن المتزوجات لا يجدن أبداً كثيراً من الوقت يكتبن فيه. إن في وسع أخواتي أن يكتبن إليَّ، فإنهن لا يجدن ما يعملن غير هذا».

وأظهر مستر وكهام في وداعه من العواطف أكثر مما أظهرت زوجته، فقد تبسم وتجمل، ونطق بكثير من العبارات اللطيفة.

وما كاد يخرج من البيت حتى قال مستر بنت بمرارة: «إنه من أظرف من رأيت من الناس، فهو يبتسم ابتسامة حلوة، ويظهر الحب لنا جميعاً، وأنا فخور به أعظم فخر، وحتى سير وليم لوكاس نفسه لا يستطيع أن يطلع علينا بصهر أجل قدراً من صهرنا».

واكتأبت مسز بنت عدة أيام لفراق ابنتها، ولكن اكتآبها لم يلبث أن زال نبأ أخذ وقتئذ يذيع. ذلك أن مديرة ندرفيلد قد تلقت أمرا يقضي بأن

تستعد لقدوم سيدها. وأهاج هذا النبأ أفكار مسز بنت إلى حد كبير، ونظرت إلى جين وتبسمت وهزت رأسها.

ولم يكن في استطاعة الآنسة بنت أن تستمع إلى نبأ مجيئه دون أن يمتقع لونها. وكان في وسع إلزبث أن ترى أن نفسية أختها قد تغيرت بعد سماع هذا النبأ، ولكن إلزبث نفسها لم تعرف كيف تفسر هذه الزيارة. ترى هل جاء بإذن من صديقه؟ أو هل كان له من الشجاعة مت يسمح له بأن يعمل بغير إذن منه؟

وقالت جين لإلزبث بعد أيام قليلة من ذلك الوقت: «لقد بدأت أشعر بالأسف لمجيئه، إن مجيئه لم يكن يهمني، وكان في وسعي أن أراه دون اكتراث، ولكني لا أكاد أطيق الحديث عنه باستمرار. إن والدتي حسنة النية، ولكنها لا تعرف ما أقاسيه بسبب أقوالها».

وجاء مستر بنجلي، وشاهدته مسز بنت من نافذة حجرة زينتها مقبلا نحو البيت على ظهر جواد في اليوم الثالث بعد مجيئه.

واستدعت بناتها في حماسة ليشاركنها في فرحتها. فأما جين فقد ظلت ثابتة في مكانها عند المائدة، وأما إلزبث فقد ذهبت إلى النافذة مرضاة لأمها. واطلعت– فرأت معه مستر دارسى، وعادت إلى الجلوس بجوار أختها.

وقالت كتي: «إن رجلا آخر مع مستر بنجلي، يا أماه. إنه شبيه بالرجل الطويل المتغطرس الذي اعتاد أن يصاحبه قبل – مستر ما أسمه».

«رباه! مستر دارسى! لا يسعني إلا أن أقول إني أكره أن أراه مجرد رؤية».

ولم تكن إلزبث ولا جين مستريحة قط، ولكن أولاهما كان لديها من أسباب القلق ما لم يدر قط في خلد جين، ولم تكن إلزبث قد أوتيت بعد من الشجاعة ما يمكنها من أن تطلع أختها على خطاب مسز جاردنر، أو أن تنبئها بما طرأ على عواطفها هي من تبدل. وكانت دهشتها من مجيئه للبحث عنها مرة أخرى لا تكاد تقل عما شعرت به حين رأت أول مرة ما طرأ على سلوكه من تغير في دربي شير وعاد إلى وجهها لونه الذي كان قد فارقه، وبقى نصف دقيقة أكثر توهجا ما كان، وعلت ثغرها ابتسامة الفرح فزادت في بريق عينيها، وذلك حين خطر ببالها في تلك الفترة القصيرة أن عواطفه ورغباته لم يطرأ عليها قط تبديل. ولكنها مع ذلك لم تكن واثقة من هذا.

وجلست مكبة على عملها، وحاولت ألا تبدو عليها علائم الانفعال، وأصفر وجه جين أكثر من المعتاد. ولما ظهر الرجلان استقبلتهما بهدوء لا بأس به، وكان ما نطقت به إلزبث قليلا بقدر ما تجيزه لهما الآداب المرعية، ثم عادت إلى الجلوس والعمل، ولم تجرؤ إلا على إلقاء نظرة واحدة على دارسى، وبدا جاداً كعادته.

ورأت بنجلي مسرورا ومرتبكا معا، واستقبلته مسز بنت برعاية خجلت منها ابنتاها، وبخاصة إذا قيس هذا الاستقبال بما كان في مسلكها نحو صديقه

من فتور ومجاملة متكلفة. وتألمت إلزبث بنوع خاص أشد الألم، فقد كانت تعرف أن أمها مدينة لمستر دارسى بالاحتفاظ بسمعة ابنتها المحببة إليها.

ولم يكد دارسى يتحدث إليها بشيء ما، فهو لم يكن جالساً بجوارها، ولعل هذا هو سبب صمته. وكانت إذا لم تستطع أن تكبت في نفسها رغبتها في الاستطلاع، ورفعت عينيها ونظرت إلى وجهه، رأت أنه ينظر إلى جين. وساءها ذلك وغضبت من نفسها لأنها انت في هذا الوضع.

وكانت مسز بنت في أثناء ذلك تتحدث إلى بنجلي عن زواج ليديا وهي مغتبطة، وتتقبل منه تهئنة.

وواصلت مسز بنت حديثها قائلة: «لا شك أن من أعظم أسباب السرور أن تتزوج للإنسان ابنة، ولكن من أصعب الأشياء في الوقت نفسه أن تبعد ابنتي عني، فأنت تعلم أن زوجها قد نقل. إن له بحمد الله بعض الأصدقاء، وإن لم يكونوا بالكثرة التي يستحقها».

وعرفت إلزبث أن هذا القول موجه إلى دارسى، فأصابها من جرائه أشد الخجل. ولكن سرعان ما سرى عنها كثير من ألمها هذا حين شاهدت مقدار ما أثاره جمال أختها من إعجاب محبها السابق، فقد بدا أنه يوجه إليها بعد كل خمس دقائق قسطا متزايدا من التفاته.

ولما هم الرجلان بالانصراف دعيا للعشاء في لنجبورن بعد أيام قليلة.

الفصل الخمسون

ولما ذهبوا بادرت إلزبث بالخروج لتسترد نشاطها، وقد أهشها سلوك مستر دارسى وحيرها، ولم يكن في وسعها أن تستقر في أمره على رأي يسرها.

تُرى لم كلف نفسه مشقة المجيء إذا لم يكن قد جاء إلا ليظل صامتا رزينا. وإذا كان يخافني فلم جاء إلى هذا المكان؟ وإذا لم يكن يعني بي بعد فلم ظل صامتا؟ ويك أيها الرجل المغضب! إني لن أفمر فيه بعد الآن».

وأقبلت عليها أختها وانضمت إليها وهي تبتسم ابتسامة مرحة وقالت لها: «والآن وقد انتهى هذا اللقاء الأول فإني أشعر باطمئنان تام. وإني ليسرني أنه سيتعشى هنا يوم الثلاثاء. وإذن فسيرى الناس علنا أنا نلتقي التقاء المعارف العاديين البعيدين عن الغرض».

وقالت إلزبث وهي تضحك: «البعيدين جداً عن الغرض في الواقع! أظنك مقدمة على حظ عظيم وهو أن تجعليه يحبك حباً لا يقل عن حبه لك في أي وقت من الأوقات».

ولم تر البنات الرجلين مرة أخرى حتى يوم الثلاثاء حين التقت جماعة كبيرة في لنجبورن. ولما دخلوا حجرة الطعام نظرت إلزبث باهتمام لترى هل يجلس بنجلي في المكان الذي كان يختص به نفسه في كل حفلاتهم السابقة، أي بجانب أختها. وكانت أمها الفطنة يشغل بالها هذا الأمر نفسه، ولهذا لم

تدعه إلى الجلوس بجانبها. ولاح متردداً ولكن حدث أن جين التفتت مصادفة وتبسمت، وبذلك قضى الأمر واتخذ مكانه بجوارها.

ونظرت إلزبث نحو صديقه وقد خالجها شعور بالظفر، فرأت أنه قد قبل هذا قبولاً حسناً؛ ولولا أنها رأت عيني بنجلي تتجهان نحو مستر دارسى، وقد بدت عليه وهو يضحك قليلا علائم الفزع، لولا هذا لظننت أن دارسى قد أذن له بأن يسعد بهذا الجلسة.

وكان مسلك بنجلي مع أختها أثناء العشاء يدل على إعجابه بها حتى لقد اعتقدت إلزبث أنه لو ترك وحده لتحققت سعادة جين وسعادته [٤] في أسرع وقت.

وكان مستر دارسى يجلس إلى جانب أمها، وكانت تعرف هي أن ليس في هذا المكان ما يبعث السرور في نفسه ونفسها، ولم تكن إلزبث قريبة منهما بحيث تسمع شيئاً من حديثهما، ولكنها كان في وسعها أن ترى أنهما قلما كانا يتحدثان، وأنهما إذا تحدثا كان حديثهما متكلفاً فاتراً.

وكانت ترجو أن تتيح لها هذه السهرة فرصة تلتقي فيها بمستر دارسى، وبدا لها لقلقها وعدم اطمئنانها أن الفترة التي انقضت في غرفة الجلوس قبل قدوم الرجلين كانت فترة مملة ثقيلة.

---

٤) أي بالزواج.

ثم جاء الرجلام وخيل إليها أن دارسى يوشك أن يحقق آمالها، ولكن واسفاه! لقد اجتمعت السيدات حول الخوان، حيث كانت الآنسة بنت تعد الشاي، وإلزبث تصب القهوة، واقترين منهما حتى لم يكن هناك مكان يتسع لوضع مقعد فيه؛ ومن أجل هذا ابتعد عنها إلى جزء آخر من الحجرة.

على أنها قد سرها بعض السرور أن جاء هو يعيد فنجان القهوة بنفسه، فانتهزت هذه الفرصة وسألته عن أخته، فأجابها عن سؤالها، ثم وقف إلى جوارها صامتا بضع دقائق.

ولما رفعت أدوات الشاي عن المائدة وصفت مناضد اللعب، جلسا متباعدين يلعبان لعبتين مختلفتين، وضاع كل أمل لها في التمتع بالحديث معه.

وبدت على مسو بنت علائم البهجة والمرح بعد أن غادر الضيوف الدار، ولم تكد تخلو هي وبناتها لأنفسهن حتى قالت لهن: «والآن يا بناتي! أظن أن كل شيء قد سار على أحسن حال. فالطعام قد طهى كأحسن طهى رأيته، واللحم قد شوي بالقدر الواجب بالضبط، والحساء أحسن خمسين مرة من الذي قدمه لنا آل لوكاس في الأسبوع الماضي. وماذا تظنين يا عزيزتي جين أن مسز لنج قالت لي؟ آه! يا مسز بنت، وأخيراً ستكون ابنتك عندنا في نذرفيلد!. إني لأظن أن مستر لنج من خير من وجد من الخلق أجمعين. وأن بنات أختها بنات مؤدبات أحسن الأدب، ولسن جميلات مطلقا. وأنا أحبهن أعظم الحب».

الفصل الحادي والخمسون

وجاء مستر بنجلي في زيارة أخرى بعد أيام قليلة، وأقبل في هذه المرة وحده. ذلك أن صديقه سافر في صباح ذلك اليوم إلى لندن على أن يعود منها بعد عشرة أيام. وجلس مع الاسرة أكثر من ساعة وكان مرحا إلى أقصى حد، ودعته مسز بنت إلى العشاء، فأجاب بأنه يأسف لأنه مدعو في مكان آخر. على أنه قبل على الفور دعوة في اليوم الثاني.

وجاء في وقت مبكر جداً لم تكن فيه واحدة من السيدات قد ارتدت ملابسها. فأخذت مسز بنت تعدو إلى حجرة ابنتها وهي في ثياب البيت قبل أن تتم تصفيف شعرها وتصرخ قائلة.

«أسرعي يا عزيزتي جين، وعجلي بالنزول. لقد جاء. عجلي، عجلي».

وردت عليها جين قائل: «سننزل حين نستطيع النزول، ولكني أعتقد أن كتي ستكون على استعداد للنزول قبلنا نحن الاثنتين».

«ويحك! فلتشنق كتي! وما شأنها هي وانزول؟ تعالي وعجلي».

وبدت على مسز بنت في أثناء السهرة نفس الرغبة التي بدت عليها من قبل، وهي أن تجتمع جين بمستر بنجلي. وانصرف مستر بنت بعد

الشاي إلى مكتبته كعادته، وصعدت ميري إلى الطابق الأعلى لتعزف على بيانها. بعد أن زالت على هذا النحو عقبتان من العقبات الخمس، جلست مسز بنت تنظر إلى إلزبث وكثرين وتغمر إليهما بعينيها زمنا طويلا دون أن تتأثرا بنظراتها وغمزاتها. فأما إلزبث فلم تكن تلاحظها، ولما لاحظتها كتي آخر الأمر قالت لها في سذاجة: «ما هذا يا أماه؟ ماذا تريدين من إشاراتك بطرفك إليَّ؟ ماذا تريدين أن أفعل؟».

«لا شيء يا ابنتي! لا شيء! إني لم أشر إليك بطرفي» .

وبعد خمس دقائق من ذلك الوقت قامت على حين غفلة وهي تقول لكتي: «تعالي هنا يا حبيبتي. إني أريد أن أتحدث إليك».

وبذلك أخرجتها من الحجرة. ونظرت جين إلى إلزبث نظرة ترجوها بها أن تبقى معها، حتى إذا فتح نصف الباب بعد لحظات من ذلك الوقت ونادتها أمها قائلة إنها تريدها اضطرت إلى الخروج.

وقالت أمها إنها تريد أن تجلس في الطابق العلوي، وما كادت تبتعد عن الأنظار حتى عادت إلزبث إلى حجرة الاستقبال.

وكان كل ما في بنجلي جميلا جذاباً، وتقبل ملاحظات مسز بنت السخيفة بصبر ما كان أعظمه. ولم تقل جين بعد هذا اليوم إنها بعيدة عن الغرض، واعتقدت إلزبث أن الأمر لا بد أن يتم بسرعة، اللهم إلا إذا

عجل مستر دارسى بالعودة. على أنها كانت تشعر حقا أن كل ما حدث كان برضاء هذا السيد.

وقضى بنجلي صباح اليوم الثاني يصطاد الطير مع مستر بنت، وعاد معه إلى العشاء. وكان لدى إلزبث بعد الطعام خطاب تريد أن تكتبه، واعتقدت أن سائر الجماعة ستجلس لتلعب الورق، فآوت إلى حجرتها.

ولكنها لما عادت إلى حجرة الاستقبال وجدت أمها مكبة على العمل. وكانت أختها واقفة مع بنجلي بجوار المدفأة كأنهما يتحدثان حديثاً جدياً، وتم وجهاهما عن كل شيء حين التفتا مسرعين، وابتعد كلاهما عن صاحبه. ولم يقل أحدهما كلمة. وارتبكت إلزبث وهمت وهي مرتبكة أن تعود من حيث أتت، ولكن بنجلة همس ببضع كلمات قليلة في أذن أختها وخرج مسرعا من الحجرة.

ولم يكن في وسع جين أن تخفي شيئاً عن إلزبث، واعترفت لها من فورها بأنها أسعد مخلوق في الوجود. وقدمت لها إلزبث تهانيها بأخلاص وابتهاج، ثم أسرعت جين بالذهاب إلى أمها.

وبعد بضع دقائق جاء بنجلي إلى إلزبث، بعد أن تحدث إلى مسز بنت حديثا قصيراً مؤديا إلى الغرض المطلوب. جاء ليطلب إليها دعواتها الطيبة بوصفها أختا له، وصافحته بسرور وحماسة.

وكانت سهرة شملت الأسرة كلها فيها بهجة غير عادية. وزاد السرور جين جمالا على جمالها، وابتسمت كتي، وتمنت أن يأتي دورها سريعاً، ولم تكن مسز بنت لتمل من كثرة التعبير عن عواطفها، ولما انضم مستر بنت إلى سائر الأسرة وقت العشاء نم صوته ومسلكهبجلاء عن ابتهاجه العظيم.

على أنه لم ينطق بكلمة واحدة في هذا الموضوع إلا بعد أن خرج ضيفه. وحينئذ التفت إلى ابنته وقال لها:

«أهنيك يا جين. ستكونين امرأة جد سعيدة».

وأقبلت عليه جين من فورها، وقبلته، وشكرت له طيبة قلبه.

فأجابها بقوله: «إنك فتاة صالحة، ولست أشك في أنكما ستعيشان عيشة راضية. وكلا كما سهل لين، لن تصمما قط على شيء، وكلاكما عظيم الثقة بالناس حتى ليستطيع كل خادم أن يخدعكما، وكلاكما كريم حتى أنكما لتنفقان أكثر من دخلكما».

وصاحت زوجته قائلة: «ينفقان أكثر من دخلهما! ما هذا الذي تتحدث عنه يا عزيزي المستر بنت؟ إن إيراده ليبلغ أربعة آلاف جنية في العام أو خمسة آلاف، ويحتمل جداً أن يكون أكثر من ذلك»؛ ثم وجهت الخطاب إلى ابنتها وقالت لها: «أي عزيزتي، عزيزتي جين؛ إني جد سعيدة! ولست أشك في أني لن تغمض لي عين في هذه الليلة بأكملها. ولقد كنت

واثقة من أن جمالك هذا لن يذهب هباء! إنه أجمل شاب وقعت عليه العين!».

ونسيت في هذه الساعة وكهام وليديا جميعاً، فقد كانت جين أحب بناتها إليها، لا ينافسها في هذا الحب سواها، ولم تكن في تلك الساعة تعني بابنة غيرها.

وأخذ بنجلي من ذلك الوقت يتردد على لنجبورن في كل يوم. ولم يكن في الاستطاعة كتمان هذا الأمر زمناً طويلاً، فقد أسرته مسز بنت إلى مسز فلبس، ونقلت هذه الخبر دون استئذان إلى جميع الجيران، وسرعان ما جهر الناس بأن آل بنت هم أهم الأسر حظاً في العالم كله، وإن كانوا هم أنفسهم قبل أسابيع قليلة من ذلك الوقت، أي حين فرت ليديا، قد تبين لهم أن نوازل الأحداث قد أختارتهم هدفا لسهامها.

الفصل الثاني والخمسون

وبعد أسبوع من ذلك الوقت أو نحوه وقفت على حين غفلة عربة خارج البيت في اصباح الباكر قبل أن يحين موعد الزيارات، ولم تكن العربة أو زي الخدم من الطراز المألوف. وفر الخطيبان من فورهما إلى الحديقة وتركا سائر السيدات لا يدرين من عسى أن يكون الزوار، حتى فتح باب العربة ودخلت البيت السيدة كترين ده بورج.

وسارت السيدة كترين وهي تبدو أكثر فظاظة من عادتها، ولم ترد تحية إلزبث بأكثر من إيماءة برأسها، ثم جلست من غير أن تنطق بكلمة.

وظلت برهة قصيرة صامتة ثم قالت لإلزبث في عنف شديد: «أرجو أن تكوني بخير يا آنسة بنت. إن هذه السيدة على ما أظن هي والدتك؟».

وأجابت إلزبث إجابة مختصرة بقولها إنها أمها.

«وتلك في ظني إحدى أخواتك».

وردت عليها مسز بنت قائلة: «نعم يا سيدتي»، وكانت إلزبث قد ذرت لها اسم الزائرة فرأت في زيارتها شرفاً عظيماً.

وقالت السيدة كترين بعد صمت قصير: «إن لكم بستاناً صغيراً هنا، وما من شك في أن هذه الحجرة لا تصلح في الصيف لأن تكون حجرة جلوس في المساء، لأن نوافذها غربية محضة».

وأكدت لها مسز بنت أن الأسرة لا تجلس فيها بعد العشاء، ثم أضافت إلى ذلك قولها:

«هل تسمحين لي أن أسأل سيادتكم عن مستر كلنز وزوجته، وهل هما بخير؟».

«نعم هما بخير جداً».

وتوقعت إلزبث وقتئذ أن تقدم لها السيدة كترين رسالة من شارلوت، فقد كان يبدو لها أن هذا هو أرجح سبب لهذه الزيارة. ولكن هذه الرسالة لم تظهر، وحيرها عدم ظهورها أشد الحيرة.

ورجتها مسز بنت في أدب جم أن تتناول بعض المرطبات، ولكنها رفضت هذا بجزم وفي غير أدب كثير، ثم وقفت السيدة كترين وقالت لإلزبث:

«إنه ليسرني يا آنسة بنت أن أسير في حديقتكم إذا تفضلت بمرافقتي».

وأجابتها إلزبث إلى طلبها. ولما مرا خلال الردهة فتحت السيدة كترين البابين المؤديين إلى حجرة الطعام وحجرة الاستقبال وأعلنت أنهما حجرتان لا بأس بهما.

ثم سارتا صامتتين إلى الأجمة الصغيرة، وقد اعتزمت إلزبث ألا تحاول فتح باب الحديث مع امرأة زادت فظاظتها ووقاحتها عن مألوف عادتها.

فلما دخلا الأجمة بدأت السيدة كترين من فورها حديثها بالطريقة لبآتية:

«ليس ثمة يا آنسة بنت ما يحيرك في فهم سبب زيارتي فإن قلبك وضميرك نفسهما لابد أن يحدثاك عن سبب مجيئي».

ونظرت إليها إلزبث مندهشة حقاً.

وواصلت السيدة حديثها بلهجة الغضب قائلة: «يجب أن تعرفي يا آنسة بنت أنني لست ممن يطقن العبث معهن، لقد نقل إليَّ من يومين نبأ مروع أشد الارتياع، إذ بلغني أن أنت يا آنسة إلزبث ستقترنين في أغلب الظن بإبن أختي، ابن أختي أنا. ومع أني أعرف أن هذا كذب شائن مرذول فقد اعتزمت من فوري أن آتي إلى هنا حتى أبلغك ما أشعر به».

وقالت لها إلزبث وقد امتقع وجهها من فرط الدهشة والازدراء: «إذا كنت قد اعتقدت أن هذا مستحيل فإني أعجب لم تجشمت مشقة المجيء إلى هنا».

«إن هذا يا آنسة بنت شيء لا يطاق، وأنا أصر على أن أعلم الحقيقة، فهل عرض عليك، هل عرض ابن أختي عليك أمر زواجه بك؟ .

«لقد قلت سيادتك أن هذ مستحيل».

«يا آنسة بنت هل تعرفين من أنا؟ إن عليك أن تفهميني حق الفهم، إن مستر دارسى خطيب ابنتي، والآن ما قولك في هذا».

«لست أقول أكثر من هذا– إذا كان الأمر كذلك، فليس لديك من الأسباب ما يحملك على الظن بأنه سيعرض عليَّ أن أتزوجه».

وترددت السيدة كترين برهة قصيرة ثم أجابتها بقولها:

«إن الاتفاق الذي بينهما اتفاق ذو صفة خاصة. إن النية معقودة منذ طفولتهما على أن يتزوجها، لقد كانت هذه هي الرغبة التي ينطوي عليها قلب أمه وقلبي أنا نفسي. أليس لديك احترام لرغبات أقاربه؟».

«ولكن ما شأني أنا وهذا؟ إليس في وسع مستر دارسى أن يختار غيرها إذا شاء؟ وإذا وقع اختياره عليَّ فلم لا أقبله؟».

«لا أريد أن يقاطعني أحد! فاستمعي إليَّ وأنت صامتة. إن ابنتي قد وجدت لابن أختي، ووجد ابن أختي لابنتي. إنهما نبيلان بحق المولد والثروة. وأي شيء يحول بين اقترانهما؟ أيحول بينه طمع فتاة لا مركز لها ولا مال؟».

«إن ابن أختك سيد كريم وأنا ابنة سيد كريم».

«ولكن ماذا انت أمك؟ ومن أخوالك وخالاتك؟ أتظنين أني أجهل أحوالهم؟».

وردت عليها إلزبث بقولها: «إذا كان ابن أختك لا يعترض على هذه الأحوال فليس بعينك أنت من أمرها شيء».

«خبريني، هل خطبت له؟».

ولم يكن في وسع إلزبث إلا أن تقول: «لم أخطب»، وحينئذ ظهرت على السيدة كترين دلائل الارتياح.

«وهل تعدينني ألا ترتبطي معه بهذا الرباط؟».

«لا أعدك بشيء من هذا القبيل».

«يا آنسة بنت! إن هذا شيء لا أطيقه. إن أعرف كل شيء عن أختك الصغرى. فهل تكون بنت هذه أختاً لزوجة ابن أختي؟ وهل يكون زوجها وهو ابن خادم أبيه عديله؟ [٥]».

---

٥) العديل المعادل ولم نر ما يمنع إطلاق هذا اللفظ على كل من رجلين تزوجا أختين.

وردت عليها إلزبث بغيظ وحدة: «لن يكون في وسعك الآن أن تقولي أكثر مما قلت. لقد وجهت إليَّ كل ما تستطيعين من إهانة، ولا يسعني إلا أن أرجو أن أعود إلى منزلي».

وانتفضت واقفة وهي تقول ذلك، ووقفت أيضاً السيدة كترين وهي غضبي أشد الغضب، وظلت تتحدث بهذه اللجهة عنها حتى وصلتا إلى باب عربتها، وهنا التفتت إليها من فورها وقالت لها: «إني لا أستأذنك في الانصراف يا آنسة بنت، ولا أرسل تحياتي إلى أمك فلست جديرة بمثل هذه الرعاية، إني غضبي أشد الغضب».

ولم تجب إلزبث بشيء بل سارت في هدوء نحو البيت، وقابلتها أمها في غير صبر وقالت لها: «هل كان لديها شيء تقوله لك يا لزي؟»».

واضطرت إلزبث أن تمسح لنفسها بقليل من الكذب في هذه المسألة، فقد كان من المستحيل عليها أن تصدقها القول عن الحديث الذي دار بينهما.

الفصل الثالث والخمسون

وكانت هذه الزيارة الغريبة منشأ اضطراب لازم إلزبث بعض الوقت، وحيرها أن تتصور منشأ الإشاعة التي ذاعت عن خطبتها المزعومة، اللهم ألا أن يكون مصدرها حديث جري على الألسنة عقب أخبار جين وبنجلي. ولم يكن يسعها إلا أن تشعر ببعض القلق من عواقب تدخل السيدة كترين في الأمر، لأنها لم تكن تعرف مبلغ سلطانها على ابن أختها. فإذا كان لديه شيء من التردد قبل فإن حجج خالته لابد أن تحسم الأمر فتقضي على كل تردد.

وقالت في نفسها: «فإذا جاء منه اعتذار لصديقه عن عدم عودته في خلال بضعة أيام قليلة، فإني في هذه الحال لا يبقى لي أمل في ثباته على حبه».

وبينا هي نازلة إلى الطابق الأسفل في صباح اليوم الثاني التقت بأبيها وكان خارجا من مكتبته وفي يده رسالة.

وقال لها: «لقد خرجت لأبحث عنك يا لزي، تعالي إلى حجرتي».

ودخلت الحجرة خلفه وجلسا كلاهما. ثم قال لها:

«لقد تلقيت في هذا الصباح رسالة خاصة بك أدهشتني. إني لم أكن أعرف إن لي ابنتين توشكان أن تتزوجا. فأسمحي لي أن أهنئك على ما نلت من نصر خطير».

وفي هذه الحظة أحمرت وجنتاها من الخجل، حين اعتقدت أن الرسالة لم تكن من الخالة بل من ابن أختها. وأضاف إلى ذلك قوله: «يبدو أنك تشعرين بحقيقة أمرك، ولكني واثق من أنك لا تستطيعين أن تحزري اسم المعجب بك. إن هذه الرسالة من مستر كلنز».

«من مستر كلنز! وأي شيء لديه يمكن أن بقوله؟».

«هو يبدأ بالتهنئة بخطبة جين ثم يستمر قائلا: (ويقال إن ابنتك إلزبث ستتخلى بعد قليل عن اسم بنت، والرجل الذي اختارته الأقدار شريكا لها رجل لحظته العناية بكل حظ عظيم، في ثروته، وأهله، وسعة نفوذه. على أني أرجو أن تسمح لي بأن أحذرك وأحذر قريبتي إلزبث– رغم هذه المغريات– من الخطر الذي تتعرض له إذا قبلت ما يعرضه عليها هذا السيد. فهل لديك فكرة يا لزي عمن عسى أن يكون هذا السيد) ستعرفينه الآن: (إن خالته السيدة كترين ده بورج لا تنظر إلى هذا القران بعين الرضا).

الرجل إذن هو مستر دارسى. وأظن يا لزي أني قد أخذتك الآن على غرة. فهل كان في وسع كلنز أن يختار رجلا هو أقل الناس احتمالا

للتقدم إليك؟ أيتقدم إليك مستر دارسى الذي لم يلق عليك– على ما أعتقد– نظرة واحدة في حياته؟».

وحاولت إلزبث أن تشارك أباها في مزاجه، ولكن كل ما وسعها أن تفعله هو أن تبتسم ابتسامة مكرهة عليها لأن في يوم ما أبغض لها منها في ذلك الوقت.

«ألا تجدين في هذا تسلية لك؟».

«بلى! أرجو أن تستمر».

«ثم واصل قوله: (رأيت من واجبي أن أبلغ قريبتي هذا النبأ على الفور حتى لا تعجل هي والرجل النبيل الذي أعجب بها على عمل ما)، ثم يزيد على ذلك قوله (وإني لمغتبط حقا لأن أمر ليديا المحزن قد كتم أشد الكتمان. على أني لا يسعني أن أهمل ما يحتمه عليَّ مركزي من واجبات، ولا بدَّ لي من أن أجهر بدهشتي حين أسمع أنك استقبلت الفتى والفتاة فيدارك. إن عليك دون شك أن تعفو عنها، ولكن عليك أيضاً آلا تقبل أن تنظر إليهما بعيني أو تسع اسميهما يذكران لك). إن ذلك هو العفو في رأيه! ولكن يبدو عليك يا لزي أنك لم تسري بهذا. أرجو ألا تكوني قد هممت بأن تدعي أن إهانة لحقتك من جراء هذه الإشاعة التافهة. وما الغرض الذي تعيش من أجله إذا لم نكن هدفا لعبث جيراننا، ولم نضحك نحن عليهم في نظير هذا؟».

فأجابته لزبث: «إن هذا يطربني إلى أقصى حد».

«نعم، ولو أنهما وقع اختيارهما على أي رجل آخر لما كان للأمر شأم ما، أما وهو لم يظهر شيئاً من العناية بك، وأنت تكرهينه كرهاً شديداً، فإن هذا الذي يقال سخيف سخافة يسر لها الإنسان. وأرجوك أن تخبريني يا لزي ما الذي قالته السيدة كترين عن هذه الإشاعة؟ فهل جاءت لتعلن عدم رضاها؟».

ولم تجب ابنته عن هذا السؤال بشيء غير الضحك. ولما كان والدها قد ألقى عليها السؤال من غير أن يظهر عليه شيء من الريبة فإنها لم ترتبك حين أعاده على مسامعها. ولم تكن إلزبث في يوم ما أشد عجزاً عن إخفاء مشاعرها وإظهارها على غير حقيقتها منها في ذلك الوقت. فقد كان عليها أن تضحك في الوقت الذي كان يصح لها أن تبكي فيه. لقد أذلها والدها إذلالا خاليا من كل رحمة حين أشار إلى عدم عناية مستر دارسى بها، وكانت تخشى أن تكون قد أكبرت من هذه العناية فوق ما يجب، لا أن يكون والدها قد رأى منها أقل ما يجب أن يراه.

الفصل الرابع والخمسون

وساتطاع مستر بنجلي أن يحضر معه صديقه مستر دارسى إلى لنجبورن قبل أن تمضي أيام كثيرة بدل أن يرسل رسالة اعتذار هذا الصديق كما توقعت إلزبث. وأقبل الرجلان مبكرين، واقترح بنجلي أن يخرجوا جميعاً ليسيروا في الخلاء مشيا على الأقدام. ولم تكن مسز بنت ممن اعتدن المشي، ولم تجد ميري متسعاً من الوقت للخروج، ولكن الخمسة الأخرين خرجوا جميعاً. على أن بنجلي وجين تركا سائر الجماعة يسبقونهما، وبقيت إلزبث وكتي ومعهما دارسى يحيى بعضهم بعضا.

وأرادت كتي أن تعرج آل لوكاس، فلما تركت الاثنين الآخرين سارت إلزبث وحدها مع دارسى في جرأة.

وكانت قبل ذلك الوقت قد صممت على أمر خطير، ورأت أن هذه هي اللحظة التي تستطيع فيها تنفيذ ما صممت عليه فقالت:

«إني يا مستر دارسى فتاة أنانية، ولا يهمني أن أجرح عواطفك في سبيل إراحة عواطفي. وليس في وسعي بعد الآن أن أكتم شكري لك جزاء عطفك على أختي المسكينة عطفا منقطع النظير».

وأجاب دارسى بلهجة الدهشة والانفعال: «يؤسفني ما نُقل إليك مما عساه أن يكون قد سبب لك بعض المتاعب لخطأ في فهم معناه».

لا تلق اللوم على زوجة خالي. إن ليديا بطيشها هي التي أفشت السر أولا، لم يكن في وسعي بطبيعة الحال أن أستريح حتى عرفت تفاصيل الأمر. فأسمح لي أن أقدم شكوى مراراً وتكراراً بالنيابة عن أسرتي جميعها».

فأجابها بقوله: «إذا كان لا بد أن تشكريني فليكن شكرك لي عن نفسك وحدك. أما أسرتك فليست مدينة لي بشيء منه. وإني، وإن كنت أجلها، لأعتقد أني لم أفكر إلا فيك أنت».

وارتبكت إلزبث فلم تستطع أن تقول شيئاً. وواصل رفيقها الحديث بعد صمت قصير: «لقد بلغت من الكرم حداً لا يصح معه أن تعبثي بي. فإذا كانت عواطفك لا تزال كما كانت في شهر إبريل، وإن كلمة منك لتلزمني الصمت في هذا الموضوع إلى أبد الدهر».

واضطرت إزبث وقتئذ إلى الكلام، وأفهمته لساعتها أن عواطفها قد طرأ عليها بعد ذلك الوقت من التغير الكبير ما يحملها على قبول تأكيده هذا بالشكر والسرور. وكانت السعادة التي غمرته حين سمع هذا الجواب سعادة لم يشعر بمثلها من قبل قط على الأرجح. وعبر في هذا الوقت عن عواطفه بالحرارة التي يستطيع بها الحب الولهان أن يعبر عن هذه العواطف.

وظلا سائرين دون أن يعرفا في أي اتجاه يسيران، فقد كان لديهما من الأفكار والعواطف والأقوال ما يشغلهما عن الالتفات إلى أي شيء آخر، وسرعان ما عرفت أنهما مدينان بما قا بينهما وقتئذ من تفاهم حسن إلى جهود خالته السيد كترين، فقد زارته فعلا لتقص عليه قصة رحلتها إلى

لنجبورن وحديثها مع إلزبث، ولكن قصتها وحديثها كان لهما من الأثر عكس ما كانت تريده منهما.

وقال لها: «لقد بعثت في من الأمل ما لم أكن أسمح لنفسي من قبل بأن أطمع فيه. ذلك أني كنت أعرف من أخلاقك ما يؤكد لي أنك لو كنت مصممة كل التصميم على رفض طلبي لاعترفت إلى السيدة كترين بكل شيء جهرة».

وامتقع لون إلزبث وضحكت وهي تجيبه بقولها: «نعم لقد عرفت من صراحتي ما يجعلك تعتقد أني قادرة على ذلك. فبعد أن عبتك في وجهك هذا العيب الذي استحي منه الآن، لم أكن لأتردد قط في أن أعيبك أمام أقاربك».

وماذا قلت في غير ما أستحق؟ نعم إن ما وجهت إليَّ من تهم كانت على غير أساس، ولكن مسلكي معك كان وقتئذ مما لا يجوز الصفح عنه. لقد كنت شخصاً أنانيا طول حياتي. ولقد أفسدني والداي مع الأسف الشديد لأني أنا ابنهما الوحيد. نعم إنهما كانا والدين صالحين، ولكنهما شجعاني على أن أكون إنساناً مزهوا، وأن أحتقر العالم كله حين أفكر فيه. هذا كا كنته وهذا ما كان يحتمل أن أكونه حتى الآن لولاك يا إلزبث يا أجمل الناس وأعزهم عندي! لقد ألقيت عليَّ درساً قاسياً في أوله بلا شك، ولكني أفدت منه أعظم فائدة. فقد أظهرت لي أن كل ما أدعيه لنفسي لم يكن يكف لأن يسر المرأة الجديرة بأن يسعى لسرورها».

«إني لأكاد أخشى أن أسألك عما اعتقدته في حين التقينا في بمبرلى. هل عبث عليَّ مجيئي؟».

«لعمري لم أعبه، إني لم أشعر بشيء غير الدهشة».

«وأقر أني لم أكن أتوقع أن تستقبلني ذلك الاستقبال الحسن».

وأجابها دارسى بقوله: «لقد كان قصدي أن أظهر لك، بكل ما أستطيع أن أقدمه لك من رعاية، أني لم أكن أحقد عليك قط، وكنت أرجو أن أنال صفحك، وأن أقلل من سوء ظنك بي، وذلك بأن أظهر لك أني أحاول إصلاح عيوبي».

وبعد أن سارا عدة أميال على مهل عرفا من النظر إلى ساعتيهما أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل.

وماذا عسى أن يكون قد حدث لمستر بنجلي وجين؟ ونقلتهما هذه الفكرة إلى البحث في شئونهما. وأظهر دارسى عظيم سروره من العهد الذي تعاهدا عليه.

وقالت إلزبث: «لابد لي أن أسألك هل عجبت من هذا؟».

«لا، لم أعجب منه قط. إني حينما رحلت كنت أشعر بأن ذلك لا بد واقع».

«أي أنك قد أذنت به ». ومع أنه قد صاح مندهشاً من هذه الفكرة، فقد وجدت هي أنها تكاد تكون الحقيقة كاملة.

«لقد اعترفت له قبل سفري بأني نصيحة خاطئة، وأني كنت على غير حق حين ظننت أن أختك لا تعيني به».

«وهل كان قولك هذا مستمداً من مشاهداتك نفسها أو مما قلته لك في الربيع الماضي دون غيره؟».

«من مشاهداتي. لقد راقب أختك مراقبة دقيقة في أثناء الزيارتين اللتين جئت فيهما أخيراً إلى هذا المكان، وتأكدت فيهما من عواطفها نحوه».

وكانت إلزبث تتوق لأن تقول إن مستر بنجلي من ألطف الأصدقاء؛ وإنه سهل الانقياد، ولكنها أمسكت لسانها عن هذا القول. لقد ذكرت أنه لم يتعلم بعد أن يقبل ضحك الناس عليه، وأن الوقت لم يحن لأن يبدأ بتعلم هذا.

وظلا يتحدثان حتى وصلا إلى البيت وافترقا في الردهة.

الفصل الخامس والخمسون

ولم تكد إلزبث تدخل الحجرة حتى بادرتها جين بقولها: «إلى أي مكان كنت تسيرين يا عزيزتي لزي؟»، كما سألها السؤال عينه سائر الجماعة حين جلسوا إلى المائدة. ولم يكن في وسعها إلا أن تقول إنهما ظلا يتجولان حتى ضلا الطريق. وامتقع لونها وهي تتحدث، ولكن أحداً لم تجل بخاطره أية فكرة عن حقيقة الأمر.

ومرت السهرة في هدوء، ذلك أنه لم يكن من طبيعة دارسى أن يعبر عن سروره بالمرح العظيم، وأن إلزبث كانت مشغولة بالتفكير فيما تحس به أسرتها حين تعرف كل شي«إنك تهزلين يا لزي. أخطبت لمستر دارسى! لا، لا، إنك لن تستطيعي أن تخدعيني! إني أعرف أن هذا مستحيل».

«ولكني في الحقيقة جادة ولا أقول إلا حقاً».

«لا يا لزي، إني أعرف مبلغ كرهك إياه».

«ذلك ما يجب أن ينسى كله، ولعلي لم أكن أحبه دائماً بقدر ما أحبه الآن».

«ولكن هل أنت واثقة – عفواً إذا سألتك هذا السؤال – هل أنت واثقة كل الثقة من أنك تستطيعين أن تسعدي بزواجه؟».

«لا يمكن أن يكون هذا موضعاً للشك. ولكن هل أنت مسرورة يا جين؟».

«مسرورة كل السرور وأعظمه. لا شيء يمكن أن يسر بنجلي أو يسرني أكثر من هذا. أي لزي! هل أن واثقة من أنك تشعرين بما يجب عليك عمله؟».

«إنني لا أخشى أن تظني أني أشعر بأكثر مما يجب عليَّ أن أشعر به حين أحدثك عن كل شيء».

«أي شيء تقصدين؟».

«نعم، يجبعليَّ أن أقر بأني أحبه أكثر مما أحب بنجلي، وأخشى أن يغضبك هذا القول».

«يا أختي العزيزة، دعك من المزاح وكوني جادة. هل تخبريني من أي وقت مضى أحببته؟».

«أعتقد أني يجب أن أرجع بداية حبي أياه إلى الوقت الذي رأيت فيه أول مرة حدائقه الجميلة في بمبرلى».

وطلبت إليها أختها مرة أخرى أن تكون جادة، وكان لهذا الطلب الأثر المرغوب، وسرعان ما أقتنعت جين بصدقها.

وحدثتها إلزبث عن أسباب كتمانها الأمر من قبل، وعن عواطفها التي لم تكن مستقرة، وعن عدم رغبتها في ذكر اسم بنجلي، وهو ما لم يكن في وسعها أن تتجنبه إذا تحدثت عنن لقاء دربى شير. وأمضت الأختان نصف الليلة تتحدثان.

وقالت مسز بنت وهي واقفة عند النافذة في صباح اليوم الثاني: «رباه! ليت مستر دارسى هذا الرجل البغيض لا يأتي إلى هنا مرة أخرى مع عزبزي بنجلي! ماذا يمكن أن يكون قصده من مضايقتنا إلى هذا الحد؟ ينبغي لك يا لزي أن تخرجي معه مرة أخرى حتى لا يعترض طريق بنجلي».

ولم يسع إلزبث ألا أن تضحك لهذا الاقتراح الذي يوافقها كل الموافقة، ولكنها مع ذلك قد ساءها أن تتحدث أمها عنه بهذه اللهجة.

ولم تكد الجماعة تدخل الدار حتى نظر بنجلي إلى إلزبث نظرة ذات مغزى، وهز يديها بحماسة لم تترك لديها شكا في أنه قد عرف الأمر. ولم يلبث أن قال بصوت عال: «أليست لديك يا مسز بنت طرق ريفية حول هذا المكان يمكن أن تضل فيها لزي مرة أخرى في هذا اليوم؟».

وأجابته مسز بنت بقولها: «إني أشير على مستر دارسى، ولزي، وكتي أن يسيرو جميعاً إلى جبل أوكهام في هذا الصباح، فهي نزهة طويلة جميلة، ولم ير مستر دارسى هذا المنظر قط من قبل».

وقال بنجلي: «إني واثق من أن الطريق أشق مما تستطيعه كتي».

ووافقت كتي على أنها تفضل البقاء في المنزل. ولما صعدت إلزبث إلى الطابق الأعلى لتستعد للخروج ذهبت أمها في أثرها وقالت لها:

«إني يؤسفني يا لزي أن تصحبي وحدك هذا الرجل الفظ، ولكنك تعلمين أنك إنما تفعلين هذا كله من أحل جين. ولا حاجة لك بأن تكلميه إلا بين الفينة والفنية، ولهذا لا تضايقي نفسك».

واتفقا في أثناء سيرهما أن يطلبا في المساء إلى مستر بنت أن يوافق على الخطبة. وقالت إلزبث إنها ستطلب هي موافقة أمها.

ولما انفرد مستر بنت بنفسه في مكتبته في مساء ذلك اليوم ذهب إليه مستر دارسى من فوره. وبلغ انفعال إلزبث في ذلك الوقت غايته. إنها لم تكن تخشى أن يعارض أبوها في هذا الزواج، ولكن الذي أقلق بالها أن تكون هي، أحبٍّ بناته إليه، سببا في شقائه باختيارها دارسى زوجا لها. ولكنها سرى عنها هذا القلق ابتسامة من مستر دارسى وهو عائد من عنده حين قال لها همسا. «أذهبي إلى أبيك». فذهبت إليه على الفور.

وكان أبوها يسير في الحجرة جيئة وذهابا وآثار الحيرة والقلق بادية عليه، فلما أقبلت عليه قال لها: «ماذا تفعلين يا لزي؟ هل جننت حتى قبلت هذا الرجل؟ ألم تكوني كارهة له على الدوام؟».

وما أشد ما كانت تتمنى وقتئذ أن لو كانت اراؤها السابقة أكثر انطباقا على العقل مما كانت، وأن ألفاظها كانت أكثر اعتدالا. وإذن لوفلا

ذلك عيلها إيضاحاً ما كان أثقله. وأكدت له في شيء من الارتباك قوة عواطفها نحو مستر دارسى.

«ومعنى هذا أنك مصممة على الزواج به. إنه موسر بلا شك، وفي وسعك أن يكون لك ملابس وعربات أجمل من ملابس جين وعرباتها، ولكن هل توفر لك السعادة هذه الملابس والعربات، إننا جميعا نعرف أنه رجل متكبر غير ظريف».

فأجابته وعيناها مغروقتان بالدموع: «إني أحبه، إني أحبه حباً كيداً. والحق أنه ليس فيه كبرياء غير جدير به. إنك لا تعرفخ على حقيقته».

وقال لها أبوها: «يا لزي، لقد وافقت، ولكني أنصحك أن تفكري في هذا الأمر خيراً مما تفكرين الآن. إني أعرف طبعك يا لزي، إني أعرف أنك لا تسعدين إلا إذا احترمت زوجك بحق. ولست أريد يا ابنتي أن أشقى بأن أراك أنت غير قادرة على أن تحسني الظن بشريكك في الحياة».

وأخيراً استطاعت أن تتغلب على أفكار أبيها وتحمله على الرضا بهذا القرآن، وذلك بتأكيدها له مراراً أن دارسى هو الرجل الذي اصطفته لنفسها بحق، وبما شرحته له من تبدل عواطفها شيئاً فشيئاً، وبما تبينته بالدليل من ثباته على حبه، وبما قصته عليه في حماسة من صفاته الطيبة. وأرادت أن تستكمل الصورة الطيبة التي انطبعت في عقله منه فقصت عليه ما فعله مستر دارسى من أجل ليديا.

فلما فرغت من كلامها قال لها: «حسن إذن يا عزيزتي، إذا كان ما تقولينه حقا، فهو جدير بك. ولم يكن في مقدوري يا لزي أن أفارقك لشخص أقل منه قدراً».

ثم تذكرت بعدئذ ما حدث لها من ارتباك قبل بضعة أيام حين قرأ لها خطاب مستر كلنز؛ وبعد أن ضحك عليها بعض الوقت سمح لها بالانصراف وقال لها وهي تغادر الحجرة: «إذا جاء شاب يطلب ميري أو كتي فأدخليه، لأن لدي من الوقت ما يتسع للقائه».

وارتفع عن كاهل إلزبث وقتئذ عبء ثقيل، وبعد أن قلبت الأمر في عقلها وهي في حجرتها قرابة نصف ساعة، كان في وسعها أن تنضم إلى سائر الجماعة، وهي هادئة النفس هدوءا لا بأس به.

ولما ذهبت أمها إلى حجرة ملابسها أثناء الليل تبعتها وأطلعتها على النبأ الخطير. وكان تأثيره فيها عجيباً أعظم العجب. ذلك أن مسز بنت حين سمعته جلست صامتة لا تقوى على النطق بكلمة. ومضت دقائق كثيرة، وكثيرة جداً، قبل أن تدرك معنى ما سمعته. ثم أخذت تستعيد شعورها، وتتحرك في مقعدها، وتقوم واقفة، ثم تعود فتجلس، وتعجب وتطلب الرحمة لنفسها.

«يا لطيفا بعباده! ارحمني يا إلهي! فكري! مستر دارسى! منذا الذي كان في وسعه أن يظن هذا! أي حبيبتي لزي ما أكثر ما ستنالين من الثروة والعظمة! وما أكثر ماس يكون لك من الجواهر والعربات! وإن ما ستناله

جين لا يعد شيئاً إذا قيس به – لا يعد شيئاً مطلقاً. ما أرق هذا الرجل! وما أجمله! ما أطول قامته. أي عزيزتي لزي! سيكون لك بين في لندن! ثلاث بنات يتزوجن! ودخلك عشرة آلاف في العام! أي ألهي، ماذا عسي أن يصيبني؟ إني سيطير لبي».

وكانت لزي تخشى من سلوك أمها في حضرة مستر دارسى، ولكن مسز بنت كانت لحسن الحظ ترهب زوج بنتها المقبل رهبة لم تجرؤ معها على أن تتحدث إليه طوال اليوم الثاني، اللهم إلا أن يكون الحديث لإظهار شواهد من الرعاية والاحترام.

وير إلزبث أن ترى أباها يعني بالتعرف إليه، وسرعان ما أكد لها مستر بنت أن الرجل يعظم قدراً لديه في كل ساعة.

الفصل السادس والخمسون

ما كان أسعد هذا اليوم اذلي أشبعت فيه عواطف الأمومة في مسز بنت، يوم أن تزوجت ابنتاها اللتان كانتا أعظم بناتها قدرا. وفي وسع القاريء أن يحزر مبلغ فخزها وبهجتها وهي تزور بعدئذ مسز بنجلي وتتحدث إلى مسز دارسى. وليتني أستطيع أن أقول إكراماً لأسرتها إن تحقق رغبتها قد جعلها أمرأة عاقلة في المدة الباقية لها من حياتها، وإن كان من أسباب التسلية لزوجها أنها كانت لحسن الحظ تصاب من حين إلى حين باضطراب في أعصابها، وأنها كانت على الدوام سخيفة في تفكيرها.

وشعر مستربنت بحرمانه من ابنته الثانية شعوراً قوياً إلى أقصى حد. وكان حبه إياها يخرجه من البيت أكثر مما يخرجه أي سبب سواه، فقد كان يسره أن يرحل إلى بمبرلى وبخاصة حين لا يكاد يكون من فيه يتوقعون قدومه.

ولم يبق مستر بنجلي وجين في نذرفيلد أكثر من اثنى عشر شهرا. ذلك أن قرب جين من أمها لم يكن مما يلائمهما، رغم طبعه الهاديء وقلبها الرقيق الحنون. ثم اشترى بنجلي ضيعة في دربى شير، فكان من أسباب سعادة جين وإلزبث فضلاً عن الأسباب الأخرى، أنهما لم تكونا بعيدتين إحداهما عن الأخرى أكثر من ثلاثين ميلا.

وكانت كتي تقضي معظم وقتها مع أختيها، وكان عملها هذا من أفيد الأمور لها. فقد تحسنت أحوالها تحسنا كبيراً بوجودها في مجتمع أرقى من المجتمعات التي تغشاها عادة. ولم تكن كتي ذات طبع جامح كأختها ليديا، ولما بعدت عن تأثير ليديا والاقتداء بها، أصبحت أقل تذمرا وأقل جهلا مما كانت قبل. ولم يكن أبوها يأذن لها بالذهاب إلى مسز وكهام، وإن كانت هذه كثيرا ما دعتها إلى الذهاب إليها والإقامة معها، ووعدتها بحفلات الرقص وبالشبان.

ولم يبق في المنزل من البنات إلا ميري. وكان عليها بطبيعة الحال أن تبتعد عن متع الحياة لأن مسز بنت لم تكن تستطيع البقاء وحدها. واضطرت ميري نفسها إلى الاختلاط بالعالم أكثر من ذي قبل. ولما كانت أخواتها الأجمل منها لم يبقين معها ليفاضل الناس بينها وبينهن، فإنها لم تكن تستنكف من هذا الاختلاط.

أما ليديا ووكهام فلم يطرأ على أخلاقهما شيء من التبدل. وقد صبر في هدوء على علمه بأن إلزبث لابد أن تلم الآن إلماما تاما بماضيه. ولم ييأس هو وليديا من أنه لا يزال في الإمكان إقناع دارسى بأن يهيىء له أسباب الثراء. وكثيراً ما كانت إلزبث ترسل إليه هو وزوجته بعض ما يصلح شأنهما من مالها الخاص، وساعد دارسى وزوجته بعض ما يصلح شأنهما من مالها الخاص، وساعد دارسى وكهام في الحصول على منصب خير من منصبه الأول في الجيش إكراماً لإلزبث. ولم يكن يسمح لوكهام أن يزور بمبرلى، ولكن ليديا كانت تستقبل هناك من حين إلى حين، غير أنهما كانا

يطيلان المكث عند آل بنجلي حتى تضايق من هذا بنجلي نفسه رغم رقة طبعه.

وتضايقت الآنسة بنجلي من زواج دارسى، ولكنها اضطرت إلى أن تكون مؤدبة مع إلزبث لرغبتها في زيارة بمبرلى ومشاهدة أخيها.

واتخذت جورجيانا الآن مسكنها في بمبرلى، وكان ما نشأ بينها وبين إلزبث من الحب هو بالضبط ما كان يأمل فيه دارسى. وكانت جورجينا ترى أن إلزبث أحسن خلق الله طرا، على أنها كانت في مبدا الأمر تستمع بدهشة، تقرب أحيانا من الرعب، إلى الطريقة الفكهة المرحة التي كانت تتحدث بها إلى أخيها. ذلك أن جورجيانا كانت أخته الصغرى ولهذا فإنها كانت تشعر نحوه باحترام يكاد يطغي على ما في قلبها من حب له.

وغضبت السيدة كترين أشد الغضب من زواج ابن أختها، وعبرت عن غضبها هذا في خطاب ملأته بضروب من الإهانة والتحقير الموجهة إلى إلزبث، كان من أثرها أن أنقطعت كل علاقة المودة بين الاثنتين. وانتقل آل لوكاس بعد زمن قليل جداً إلى «دار لوكاس» واعتزموا الإقامة فيها حتى تسكن العاصفة. وقد سكنت فعلاً في أخر الأمر حين أقنعت إلزبث زوجها بالسعي إلى مصالحتها.

أما آل جاردنر فقد كان دارسى وزوجته معهم في صفاء ليس بعده صفاء. فقد كانا يحبانهم حقا، وكانا يشعران على الدوام بالشكر الخالص للقوم الذين جاءوا بإلزبث إلى دربي شير فكانوا بذلك سبباً في الجمع بينها وبين زوجها.



الفهرس